دكتور مصطفى عبد الغنى

المرأة حين تحكم



المرأة.. حين تحكم

د. مصطفى عبد الغنى



دار المعارف

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

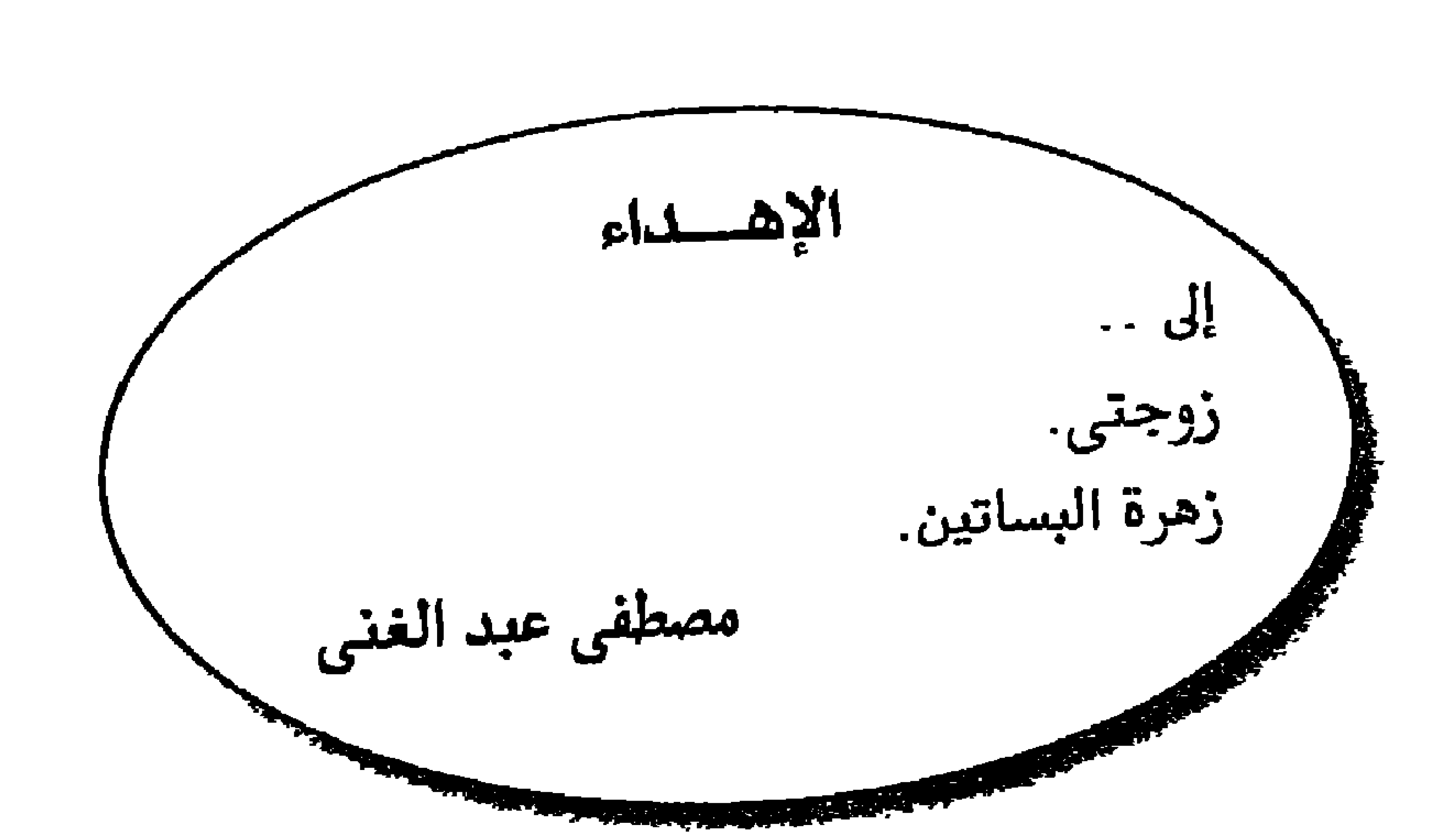
عبد الغني، مصطفى.
المرأة حين تحكم/مصطفى عبد الغني. ـ ط١. ـ القاهرة:
دار المعارف، ٢٠٠٩.
١٤٢ ص، ٢٤ سم.
تدمك ٤ ٧٢٦٤ ٠٢ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - المرأة في الحياة العامة
(أ) العنوان
ديوى ٣٠٥,٤٢

رقم الإيداع ٢١٥٠ / ٢٠٠٩ ٢٨/ ٢٠٠٨/ ١

تصميم الغلاف الفنان
شريف رضا

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع نظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة – ج . م . ع
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg


الإهـــداء
إلى ..
زوجتى.
زهرة البساتين.
مصطفى عبد الغنى

مقدمة



عن النسوان

لا يحمل المعنى المضمر هنا أى إيحاء حسي، فالنسوان، هو معنى لهوية جنسية Sender وهو تعبير يعنى فى العلوم الاجتماعية، فهمًا، ثقافيًا، أكثر منه بيولوجيًا.

فالفهم السليم للمرأة يظل المدخل الصحيح للاقتراب منها، والغريب هنا أن كلمة (النسوان) عندنا أصبحت ترادف الكثير من المعانى البالية عن المرأة سواء بخصوص عقلها أم صورتها أم فى تفكير الرجل.

بل لا نبالغ إذا قلنا: إن المرأة نفسها فى كثير من الأحيان تبذل جهدًا مُضَاعفًا لترسيخ المفهوم الشائع عنها لدى الرجل مهما تكن درجة ثقافته، وهى التابع أو التابعة له، المرِّفهة عنه، المخلوقة من أجل البيت والأولاد.

بيته وأولاده...

وإذن، فمحاولة الاقتراب من المرأة جعلتنا نؤثر عنوان «النسوان»، بعيدا عن التصورات القابعة فى اللاشعور عند المرأة والرجل، فالمصطلح نفسه يشير إلى معنى لغوى صحيح بالعربية الفصحى، فهذا المصطلح نجده يعبر عن المرأة أحسن تعبير: فى كثير من المعاجم العربية – على سبيل المثال – : لسان العرب والمعجم الوسيط. وغيرهما مما يؤكد على التصور الصحيح لتكوين اللغة ورموزها.

«النسوان» – إذن – لفظة عربية معنًى ومجازًا أكثر دقة فى التعبير عن سواها، وأقرب إلى التصور الصحيح لدور اللغة فى حياتنا.

إنه التعبير العربى الذى يحوى دلالة مغايرة إذا تعلق الأمر بمثله فى الغرب سواءً فى الرمز أم التطور التاريخى، وهو ما يتأكد على مستوى المقارنة مع هذا الغرب فللشرق تطور وللغرب تطور مغاير تمامًا.

ولأن الغرب يظل دائمًا: الآخر، الذى لا يمكن تحقيق الذات إلا بالنظر إليه، والإمعان فى موقعه وموقفه منا، فإن التناظر بين دور المرأة فى الغرب ودورها فى الشرق يمنحنا اقتناعًا مهمًا، هو، أنه لا يهمنا من تجارب المرأة فى الغرب إلا ما يصلح لنا..

ولا يهمنا مايسوقه الغرب من دلالات إلا ما نجده متمشيا مع قناعتنا..

إنه المعنى المغاير المشابه فى آن واحد بيننا وبين الآخر، الأكثر من هذا أن المعنى يتضح أكثر

إذا أضفنا ما نعرفه نحن عن المرأة، إنها تمثل - كما نسعى إليه ايديولوجيا - هذا الآخر الذى نحمل له معانى متغايرة إلى حد بعيد..

إنه المعنى المضمر والمعلن للمرأة فى العصر الحديث..

وبهـذا المعنــى فإنه لا يهمنا التطور الذى انتهى بالمرأة هناك إلى «حالة» من التراكم النســوى Feminism الذى يعتمد على الواقع الغربى أكثر منه على واقعنا العربى .

ولا يهمنا هذا المعنى الذى نحمله نحن أولاد الشـرق لهذا المخلوق الذى جاء من ضلع آخر، لانقول أعوج، وإنما نقول مرتبطا بالذات العربية ومتمشيا معها ليس فى أصل التعبير فقط، وإنما فى التعبير الذى راح يحمل معانى كثيرة ليس فى الغرب وحده وإنما هنا فى الشرق أيضا ..

تستطيع الحركات «النسوانية» فى الغرب أن تطالب بتوفير موانع الحمل وتسهيل الإجهاض مجانًـا، كما تسـتطيع أن تتحدث عن إنهاء أشـكال «التمييز ضد السـحاقيات وحق المرأة فى أن تحدد ميلها الجنســى» - كما أشـارت إلى ذلك لجنة التنســيق النسائى البريطانية فى القرن الماضى - وتطالب بحرية المرأة فى اختيار أنوثتها بنفســها من التركيز على شــكل المرأة وشبابها وعطورها وحرية الجيب وطبيعة الملابس الداخلية كما تعكســه لنا وســائل الإعلام الأمريكية فى القرن الماضى وحتى اليوم..

غير إن المرأة عندنا لا ترتبط بذلك كله، وإن ظهرت فى بداية القرن الحادى والعشرين عندنا دعوات مقلدة، إنها هنا تختلف، لا فى جنسها فقط وإنما فى وضعها العام..

نقصد المرأة العربية التى عاشــت آلام التخلف وأوجاع الاستعمار البريطانى فى القرون الماضية ثم الامبريالى (الأمريكى) فى الحقبة الأخيرة ..

إن المرأة العربية لا تتحدث كثيرًا عن حق المرأة فى أن تجد ميلها الجنســى أو تحدده، فإن ذلك كله ترف لا تملك القدرة عليه اليوم، إن هذه المرأة مطالبة بتغيير بنية المجتمع حولها، فهذه البنية الأبوية للمجتمع وتقاليده البالية وتخلفه الهائل يظل أهم من المطالبة بالحقوق المترفة، إن القضايا العربية هنا، والتى يتســاوى فى المعاناة منها الرجل والمرأة على الســواء، مازالت تتأثر بحركة المجتمع، وهى حركة، مازالت - على رغم تعرفنا إلى الغرب منذ قرابة قرنين من الزمان - عاجزة عن اللحاق بالتطور الهائل فى هذه القرية التى نحيا عليها دون الإفادة من هذا التطور، وإنما مازالت تعانى من قضية الأمية وتدهور التعليم والنظرة الأحادية؛ والنظرة «الذكورية» المتدنية للرجل، لا النظرة الواعية الغائية للمرأة فى صراعنا - كأمم عربية - مع الغرب الظالم .....

والمرأة فى الوقت نفسه أيضا ترفض أن تستخدم حالات الاغتصاب أداة ضدها لحجب القضايا الأساسية فى فترة زمنية محددة، أو افتعال قضية وهمية عن علاقة الرجل السيئة بالمرأة (كعدو لها، المرأة تسعى لرفض أن تصبح (شيئًا) أو تتحول إلى سلعة إغراء فى وسائل الإعلام..

إن للمرأة مطالب لا تخرج عن المشــاكل التــي يعاني منها الرجل تمامًا مثل الرجل-في صورة القهر الاجتماعي لا القهر الجنسي وحده.

(لنذكر: أكثر من ٧٦ في المائة من النســاء يعانين من ضعف المســتوى الثقافي ويصل عند الذكور إلى أكثر من ٥٠ في المائة، وتعاني أكثر من ٧٦ في المائة من النساء من الأمية في حين لا تقل النســبة عن ٥٠ في المائة لدى الرجال، وبلادنا تعاني من المساكن؛ فيسكن في مساحة ٥٠ مترًا مكعبًا مالا يقل عن ٧٥ في المائة من الأســر الريفية، ولا يعرف الكهرباء في القرية أكثر من ٣٠ في المائة، وعلى امتداد ستة آلاف جمعية تعاونية زراعية لا تعرف سوى ٥ نساء فقط في جميع مجالس إداراتها، بل لا يوجد نادٍ نسائي واحد في الريف المصرى اليوم، وقل مثل هذا عن الخدمات والتعليم.. إلخ).

هذا وغيره يمكن أن نرصده في نهايات ألفية وبداية ألفية أخرى، حيث يتصاعد بشكل أكثر لتحول الدراما المرئية إلى ميلودراما مفجعة في بدايات القرن الحادى والعشرين.

وهو ما يشير في الحالتين إلى ما يجب التنبه إليه لدى المرأة الآن: درجة الوعى وليس القضايا العامة، من الغرب، أو التى تغرقنا فيها من آن إلى آخر النظم البطريركية، وعديد من المجلات النسوية والجمعيات والقنوات الفضائية الرسمية أو الأهلية أو - حتى - النسوية التى لا تنظر إلى المرأة إلا كفستان وأدوات تجميل وأداة جنس ومانيكان وفتاة إعلانات.. إلى غير ذلك..

درجة الوعى، إذن، هى ما يجب أن يعاد معها النظر إلى المرأة إعادة النظر وليس «التســليع» أو «الأداة» التى تستخدم الآن كما كانت تستخدم قديما.

* * *

وهذا يصل بنا إلى درجة أخرى من درجات الوعى..

إن هــذا الوعى يظل شــكلاً من أشــكال التّنوير الذى تعيش فيه بلادنــا، مما يخرج المرأة من التصــور الأيديولوجــى (أن يقــال إن المرأة تمثل مع العبيــد والخدم فكرًا مغايرا على المســتوى التاريخى)، أو التصور البيولوجى (أن يقال إن المرأة أضعف بحكم التكوين)، أو تصور سيكوباتى (أن يقال إن الطبيعة النسوانية السلبية تكونت بفعل الرجل).. إلى آخر هذه التوّهمات التى مازال يرددها عندنا ليس الأميين فقط وإنما بعض المتعلمين والمثقفين وبعض المشايخ أيضا.

معنى هذا كله أن موقف المرأة الإيجابى لا يقتصر بالضرورة على الجنســين (الرجل والمرأة)، لكنــه لا يخرج عن ســياقه الطبيعى حين تطالــب بحقوق فردية، فهذه الحقــوق تصبح مدخلاً للحقوق الاجتماعية والاقتصادية فى المجتمع..

فحـين لا تصبح المرأة واعية لدرجة مشـاركتها فى تغيير المجتمع تتحول إلى أداة لا دورلها؛ وليست إلى أداة فعل بالطبع..

وحـين لا تدرك المرأة بشـاعة الواقع، وتعمل لتغييره، تصبـح النتيجة على العكس، تتحول إلى البكاء على الأطلال، أو تتمسـح بالشرائع أو تنكص إلى عصر الحريم بإرادتها للاسف الشديد وليس بإرادة المجتمع أيضا..

وقد يكون من المهم أن نكرر هنا – بداهة – أن الوعى الفردى لا يعنى بالضرورة التغيير الفردى (الشـخصى)، وأنه لا يمكن تجاهله، فالتعبير الفردى الذى يتم فى إطار واعٍ يصبح فعلاً جماعيًا فى النهاية..

إنه الفردى الذى يسـعى إلى المجتمع ويعمل فى إطاره وهذا يعنى أن الفردى سياسـى وليس شخصيًا بأية حال؛ الفردى هنا يظل «رؤية لتغيير العالم»..

بالفردى هنا يمكن لنا أن نرى دعوة هدى شعراوى – على سبيل المثال – فى إطارها الصحيح حين تدعو إلى إنشاء نادٍ رياضى للنساء عام ١٩٠٦.

وبالفردى هنا يمكن أن نرى دلالة أن يرشح مجلس الشعب فى عام من الأعوام أربع نساء، فلا يبقى فى المجلس من أصل ٤٤٠ رجلا غير ٤ نساء فقط (عام – على سبيل المثال – ١٩٩٠)..

الأكثر من هذا أن نلاحظ أنه بدون «تخصيص» مقاعد للمرأة فى مجلس الشـعب يكون تمثيلها ضعيفًـا جـدًا، فإنه بينمـا كان عدد مقاعد المرأة عام ١٩٧٩ يصـل إلى ٣٥ امرأة منتخبة تدنى عام ٢٠٠٥ ليصـل إلى ٥ مقاعد لنسـاء منتخبـات وهو يبرر الدعوة إلى تخصيـص لا «انتخاب» مقاعد للمرأة أخيرًا.

وبالفـردى أيضا نسـتطيع أن نفهم دلالـة الاهتمام بالعديد من القضايا فـى هذا القرن – بين ١٩٠٦– ١٩٩٠– التـى تتراجـع ولا تتقدم أبدًا وتبدو فى إطار فردى: كقضايا الزواج، والطلاق، وتعدد الزوجات، وتعليم المرأة، وقضية العمل.. إلخ..

إنه الفردى – الهوية النسوانية – الذى لا يرى قضايا المجتمع فى حركة انفصال عن قضاياها الشـخصية، وإنما تظـل القضايا الذاتية للمـرأة كخيوط تتباعد وتتقـارب لتمثل – فى دخولها النسيج – القضايا الجماعية للمجتمع..

ولذلـك، فإننا نقول: إن معيار تقدم المرأة يكون بمحاولـة رفع درجة الوعى، وهذه المحاولة تمثل درجة من درجات التطور والتنوير.. فى عالمنا العربى التعس الذى لم يعد ليفرق كثيرًا بين قهر المرأة وقهر الرجل.

وهو ما نجم عنه ظهور دعوات نسوانية كثيرة طائشة.

وهو ما يصل بنا إلى انتقاء نماذج دالة مانعة..

في هذا الإطار تتحدد وتتعدد الشخصيات النسائية وتمثل نماذج دالة.

وعلى رغم أنها ليست نماذج مانعة.. فإنه يمكن أن تمثل – بفعل التتابع المحورى – نماذج أصلية Prototype تمثل أغلب النماذج المعروفة الآن فى هذا العالم.

فـى هذه الحقبة من التاريخ المعاصر الذى ما زال – على رغم دعوات رجعية – يمثل التكوين الإيجابى للمرأة، والذى على رغم دعوات شـرقية متخلفة يمثل التطور الإيجابى الذى لم يسـع إليه الإنسان، وإنما سبقه الدين الحنيف في عدة من آياته ...

إننا أمام الغربية والمناضلة والعالمة والمسـيطرة والزوجة والحديدية والنارية.. والمفترى عليها، إلى غير أولئك من النماذج النسوانية الواعية اللائى نجدهن فى هذا الكتاب.

إن كل نموذج يشير إلى شبيهه ويستدعيه، وكل نموذج يؤكد النموذج الأصلى..

وعلى سبيل المثال، فإن المناضلة – عبلة طه – تشير إلى كثيرات عندنا، كثيرات، مجهولات، نرى عشرات منهن فى الأرض المحتلة (فلسطين)، وهن معروفات لدينا، حين نذكر: ليلى خالد، الفدائية الفلسـطينية التى قامت بجسارة شديدة بخطف الطائرات الإسرائيلية إبان تكوين خبرة للبحث عن أسـلوب للتعامل مع العدو، ولدينا: فاطمة برناوى التى اشتركت فى عام ١٩٦٧ فى تفجير سينما تسيون الإسرائيلية وحكم عليها بالسجن مدى الحياة واعتقلت السلطات الإسرائيلية والدتها وشقيقتها وراحت تندد بمن كان يعرفها، وخارج النضال لدينا عشرات أخريات واعيات لابد أن نذكر منهن: ليلى أحمد، وفاطمة المرنيسى.

وفى هذا الإطار نستطيع أن نذكر المفاوضة: – حنان عشراوى – التى استطاعت خارج السجن أن تلعب دورًا إيجابيًا فى حركة النضال العربى والبحث عن صور للتعامل مع الإسرائيليين عبر تراكم الخبرة والوعى فى سـنوات النضال ضد الصهاينة، ومعها يمكن أن نذكر عشرات الفتيات الواعيات اللائى عرفن فى فترات المقاومة الفلسـطينية فى نضالها المسـتمر أو – حتى – بعد أن دخل العرب الفلسطينيون فى السنوات الأخيرة فى نفق الشقاق والنفاق ...

هذه نماذج من الشرق العربى، وهناك نماذج أخرى من الشرق الأسيوى، وتمثل السيدة الواعية – بنازير بوتو – أبلغ تعبير عن هذا النموذج فى التصدى للهيمنة الغربية على بلادها، والتصدى أيضـا لطغيـان الحكام الموالـين للغرب أو الطامحـين إلى منصب ومراتب عليـا حتى رحلت، أو قتلت أو اغتيلت بشكل أدق من بين أهلها فى باكستان.. ونموذج بنازير يذكرنا بنماذج أخرى من أمثال: كورازون اكينو فى الفلبين وتشـاومورو فى نيكاراجو ثم الشـيخة حسنية ومسز كورى وبندرانيك.. وغيرهن كثيرات..

وقبل هذا وبعده نستطيع أن نستعيد نماذج دالة شجاعة فى الشرق والغرب، فمن ينسى هدى شعراوى فى مناداتها بحقوق المرأة منذ فترة مبكرة من القرن الماضى، ولم يرتبط كفاحها بالمستعمر

فقط، وإنما جاوزته إلى المستعمر الآخر – الداخلى، ومن ينسى جميلة بوحريد التى عرفت من أشكال النضال وإنجازاته حتى نالت الجزائر الشقيقة استقلالها..

وعبورا من الشرق إلى الغرب، فسوف نرى أوضح مثال للمرأة المسيطرة، – نانسى ريجان – ولا نكاد نذكر نانسى إلا ونذكر معها الكثيرات من أمثال بتى ورزوزلية ودولى من زوجات المسئولين الأمريكيين، ثم مارى – آن وكاترين ومارجوت، ثم بربارة من زوجات المسئولين البريطانيين.. إلى غير أولئك..

ونتمهل أكثر عند اثنتين: المرأة الحديدية – تاتشر – والمرأة النارية – كريسون – من بريطانيا وفرنسا، فكل منهما كانت تتميز بصفات تتشابه لا فى النوع فقط، وإنما – أيضًا – فى الطموح والرغبة فى التحرر ونيل الحرية فى داخل بلادها دون ربط هذا بالهيمنة على استقلال الغير والنيل من وعيه وقدراته..

ولسنا فى حاجة لنذكر العديد من هذه النماذج؛ إذ أصبحت الآن كثيرة فى العالم الذى نعيش فيه..

وتوجد نماذج أخرى كثيرة نلتقى ببعضها هنا، ونتعرف على شبيهاتها داخل الكتاب وخارجه مما يقطع بدور «النسوان» فى الحياة السياسية والاجتماعية فى عالمنا، وفى عديد من مناطقه .

وهو ما نقترب معه أكثر إلى الصورة الايجابية للمرأة الواعية سواء فى ممارسة وجودها ضد المستعمر الخارجى، أم المستوطن المزعوم أم حتى بين أبناء جنسها من الرجال والنساء – أيضا – اللائى مازلن جميعا لا يرون غير نموذج المرأة المتخلفة والجانية من أبناء جنسها، والمتخلفة من أبناء بلادها من الرجال أيضا..

وهو ما يعود بنا إلى المعنى الإيجابى للمرأة أو لنون النسوة أو لهذه الذكورة المتخلفة والمستعمر الجانى البغيض فى فلسطين والعراق و..

والنسوان عندنا وعندهم يتشابهن فى الاقتراب من النموذج أو الابتعاد عنه، لكنهن يختلفن فى درجة الاهتمام وطبيعته، فالمرأة عندنا تعانى من الهم اليومى المغاير لمثيله عندهم..

والمرأة عندنا يجب أن تهتم بدرجة عالية من رفع الوعى فى حين أن المرأة هناك تعيش فى سياق حضارى مغاير لمثيله هنا..

إن الهم اليومى لا يولى عندنا للجمال أو الأنوثة درجة أقل مما تستحق، ولكنه يفرق بين الجمال الذى لا يكترث بغير الأحداث اليومية التافهة، وبين الجمال الذى يسعى للتغيير، فلا نظن أن الجمال الآن يمثل القطب الرئيسى فى دائرة اهتمامات المرأة.. وإنما ذكاؤها الوهاج حين نطالع الصحف على أسماء نساء واعيات فى المجالس الشعبية أو نساء واعيات فى بعض المراكز الدينية..

وهو ما لابد أن نشير معه إلى كثير من حقائق الطبيعة والتكوين الإنسانى الذى لايمكن أن تخلو منه أية امرأة تعيش فى أى مكان فى هذا العالم ..

فالجمـال وحده لايكفى لتصف امرأة، وانما وراء الجمال وأمامه درجة الوعي القصوى في أية ممارسـة جدية في هـذا العالم؛ فلا يمكن أن يكون الجمال وحـده العامل المؤثر في وجود المرأة ودرجة اهتماماتها.. لقد اكتشف عالم الآثار الأمريكي روبرت بيانكي – على سبيل المثال – أن كليوباتـرا لم تكن جميلة وإنما كانت شـخصية جذابة، وهي كامرأة لم تكن تدير رأس أحد «إن لها قوة وذكاء أي حاكم رجل.. وليس لها من صفات المرأة ولا قدرتها على الإغراء. ولم يكن لها أي نصيب من جمال الجسد»..

ومـع ذلك، وعلى رغـم ذلك.. فإن كليوباترا تركت على وجه التاريـخ آثارًا غائرة لم تتركها الكثيرات من الجميلات المسطحات ..

وهو ما تفرضه علينا حين تهل علينا بذكائها الملحوظ وليس فقط بجمالها.

نذكر هذا لأن الكثير من «كليشيهات» الأنوثة التي يسعى العالم الغربي الرأسمالي الآن لتكريسها بعيدا عنه لا تتناسب قط مع عالمنا العربي..

إن النسـاء هنـاك بدأن أخيرًا في فهم سـر اللعبة، وبدأن يتمردن على هـذا الواقع غاضبات صائحـات أن.. «الرجال يريدوننا أن نرتدي التنورة القصيرة.. والملابس الداخلية المغرية والمزينة بالدانتيل»...

نذكـر هـذا لأن عديدًا من نسـائنا الجميلات يتجهـن إلى الغرب؛ حيث الجراحـة التجميلية (السـيلكيون) تسـتحوذ على كل اهتمامهن، وحيـث التخصص في جراحة الجمال عند النسـاء حيث وصلـت في مدينـة مثل كاليفورنيـا إلى أن يعمل فيها قرابـة ٢٠٠,٠٠٠ جراح تجميل في نهاية القرن العشـرين وإلى اسـتيراد – كمـا تلاحظ – آلاف الأدوات التـي ترفع درجة الجمال الأهوج المتخلف ...

نذكر هذا لأن عديدًا من نسائنا – على رغم ذلك – لا يكدن أن يعشن على الكفاف، ولا يسمعن عن هذا المجتمع الاستهلاكي ونسائه قط، اللهم إلا من خلال أجهزة الإعلام.

نذكـر هـذا لأن الردة على المـرأة العربية تحاول أن تدمر بعض ما كسـبته على مدى التاريخ الحديـث. ؛ فعلى رغم أن هدى شـعراوي بدأت معركتها الكبرى برفع اليشـامك والأنقبة، فإن اليشـمك والنقاب الآن عاد أكثر من هذا العصر في بداية هذا القرن خلال جماعات غير واعية، وجماعات حزبية تبحث عن مكاسـب سياسـية، ورجال متخلفين لا يرون تأكيد صورة (سـي السيد) إلا بوجود (الست) كشيء في البيت.

وقبل هذا واستجابة لهذا النزوع المتخلف لدى العديد للرجال..

إن مكاسـب المرأة التـي حصلت عليها في حقبة بعيدة تشـهد تراجعًا حادًا في كل مجال: تعليـم المرأة يتراجع، الدعوة لعودة المرأة تكسـب أنصـارًا كل يوم، ضآلة وجود المرأة في الحقل السياسي يستمر..

الأكثر من هذا إيلاما أن نشهد الآن الكثير من الجمعيات الأهلية أو المسماة بهذا الاسم الذى يجـد لـه الآن الكثير من الأنصار والجماعات المتخلفة التى تبحث عن المرأة وراء الحجاب فقط، وهـو الحجـاب الذى لا ننكره مادامت المـرأة واعية بمايحدث حولها، لاتنـزوى وراء الحجاب والنقـاب فى وقت العـدو مازال يتربص بنا، والعدو من الداخل من بنى جنسـها مازال خاضعا لأفكار غربية تقترب من دعوات المستعمر وحسب.. إلى غير ذلك مما يعكس واقعًا يزرى بالمجتمع قبل أن يستعيد المرأة إلى البيت ويستعبد الملكات الطبيعية فيها.

وهو ما يطرح علينا أسئلة كثيرة، خاصة مع دخولنا عصر «الفضاء التخيلى» والفضائيات الحرة والإعـلام المتخلف لأدواته الحضارية والمقيدة وبتحديات الصهيونية والإمبريالية مع وصولنا لفترة حرجة تحتاج إلى وعى عربى يحمل رموزًا عقدية بناءة لا تفرق بين رجل وامرأة..

وهـو ما زاد أهمية خاصة فى مواجهة الخطر الغربى العدوانى المتصاعد فى رموزه فى الداخل والخارج على السواء.

ولهذا ولغيره، نرى أن (النسوان) الآن فى حاجة إلى استعادة الوعى لا تغطية العيون والوجه والعقل أيضا، والدوران فى الساقية التى يجب أن تستمر كما يريد صاحبها بأية صورة..

وفى حاجة إلى لعب دورها بجانب الرجل وليس ضده..

وفـى حاجة إلى فهم أن المجتمع المتخلف يفرز امـرأة متخلفة، وأن المرأة غير الواعية تكرس لهذا المجتمع المتخلف وتعمل له..

نحن فى حاجة إلى أن ندرك أن دور المرأة فى عالمنا لا يقل عن دور الرجل، فترف التسـلية لا نملكه، نحن الرجال والنساء التعساء فى هذا العالم الظالم، ولا يجب أن يملكنا..

بقى أن نذكر أن هذه النماذج هنا فى العصر الحديث نشرت فى أغلبها فى الحقبة الأخيرة، عدا اثنتين، كتبتا ولم تنشـرا إلا مع نشـر هذا الكتاب فى بدايات القرن الحادى والعشرين، ريا وسكينة، وكليوباترا..

إن نموذج المرأة الفرنسـية – سـوزان – مازالت تلعب عندنا – فى الشرق التعس– هذا الدور التبشـيرى المضاد لنا؛ و هذا الدور المثال من النسوان يلعب دوره المزدوج، وما زال، مع الرجل، ومع الاستعمار. كما أن نموذج المرأة المصرية – كليوباترا – ما نشرت بالفعل على رغم أنها كتبت فى فترة ما بين القرنين؛ ولهذا آثرنا أن تكون بين هذه النماذج الإيجابية للمرأة الشرقية اليوم.

بقيـت ملاحظة بدهية هنا، هى أننـا حاولنا أن نعيد النماذج المتخلفة إلى الأذهان، ولكننا لم نتوقف عن التذكير بهذه النماذج الإيجابية فى هذا العصر ..

ولهذا، وغيره، آثرنا أن نعيد نشر هذه الأمثلة أو النماذج الإيجابية وحسب.. وهذه النماذج تؤكد وجود هذه النماذج السلبية، وهى تؤكد كذلك الإشارة إلى دور النماذج الإيجابية فى عالمنا..

بقى أن أقول: إن هذه النماذج كتبت فى السنوات الأخيرة على مراحل متفرقة، وكان يتابعها صاحبها من آن إلى آخر، وهو ما يمكن أن يقال معه: إنه من السـهل أن نعثر فيها على العديد مـن الخيوط الإيجابية فى النسـيج الفكـرى للكاتب، ورصد العديد مـن العناصر الإيجابية «فى الخطاب» الفكرى العام..

فأرجو أن أكون وفقت ..

ولله الأمر من قبل ومن بعد ..

مصطفى عبد الغنى

□□□



... ومع ذلك، فإنه لا يكاد يمضي وقت حتى تعود إلى أهلها، فتعرض عليهم قضية اقترانها بهذا الشاب الكفيف فتجيئها الردود بشدة:

– كيف؟ من أجنبي؟ وأعمى؟ وفوق ذلك كله مسلم؟!

لا شك أنك جننت تمامًا؟

وتنصرف سوزان وهي تتمتم: ربما كان الأمر جنونًا

ويكون على سوزان أن تقترب أكثر من عم لها (قسيس) وتفضي إليه بذات نفسها، ويكون على العم أن يتروى قليلاً، ولا يلبث أن يعلن لها بالموافقة..

وإلى هنا، والقصة عادية، لا تحمل ملامح تلفت النظر، قصة فتى كفيف يطلب يد فتاة، وتنصرف هي بعد هول المفاجأة إلى أهلها، فيتهمونها بالجنون، غير أن عمها يشجعها على ذلك آخر الأمر..

والواقع أن (الجنون) الذى تردد هنا يطوى أشياء كثيرة، ذلك لأن دراسة الاستشراق فى القرن الثامن عشر يلقى بعض الضوء على تلك القصة العادية فينير بعض جوانبها..

وبعيدًا عن شرح فكرة الاستشراق فى ذلك الوقت، فإننا نستطيع أن نقول: إن هذا القرن (الثامن عشر)، وقد كان قرن العلم زمنيًا دون شك، وأن مؤثراتها كانت تمتد إلى بدايات القرن العشرين.. هذا القرن شهد نمو تيارات كثيرة كانت تحدد نظرة الغرب إلى الشرق..

إن أفكار الرحالة مثل لين وفلوبير ورينان كانت تشير إلى أن الغرب أسمى من الشرق سواء فى تعاليمه أم أفكاره أم تقدمه..

كما أن تطور التاريخ الحربى بين الشرق والغرب وامتداده وتمثله الآن فى بقايا الدولة العثمانية، كان يحمل صورة للعربى الهمجى، الغادر، الذى اختلطت فيه فكرة الدجل والوحشية والعدوان، ويقول لنا هنا إدوارد سعيد: إن السبيل إلى الثروات الهندية (الشرقية) كان يقتضى دائمًا المرور أولا عبر الأقاليم الإسلامية، كما كان يقتضى تحمل التأثير الخطر للإسلام، من حيث هو نظام من المعتقدات شبه آرى. وكان النجاح على الأقل، خلال معظم القرن الثامن عشر، حليف بريطانيا وفرنسا، وكانت الإمبراطورية العثمانية قد استقرت منذ زمن طويل فى وضع من

الهرَم المريح (بالنسبة لأوروبا) وهو ما يسمى فى القرن التاسع عشر (المسألة الشرقية)، وقد كانت محاولات الباحثين أو الرحالة الأوربيين حينئذ تسعى إلى غزو الشرق لتعريته من حجبه...

كانت فرنسا قد سيطرت على الاستشراق فى هذه الفترة التى تزوج فيها طه حسين بسوزان، ومن ثم، وجد المناخ ملائمًا تمامًا لمواصلة الحركات الاستعمارية لغزو الشرق، وأن تقدم هذا كله صورا من التبشير قصد به فى الظاهر الثقافة وفى الباطن استكمال رسالة الغرب بالسيطرة على الشرق، ولم يكن بعيدًا عن أفهام رجال الدين، خاصة، جريجورى العاشر بارتداد المغول إلى المسيحية..

المهم أن الروح التبشيرية كانت قد نمت ووجدت لها مساحات شاسعة فى أفئدة رجال الدين ذوى الميول الغربية...

فى هذا المناخ، كان توق العم (القسيس) عارمًا فى أن تذهب ابنة الأخ لتوالى السيطرة على الجانب المثقف من الحضارة الإسلامية فى مصر وهذا يغذى فكرة الأحلام الرومانسية لرجال الأكليروس الغربيين منذ الحروب الصليبية، ربما، لإعادة السيطرة على الآخر (الشرق الآن)، ولم تكن المصادفة قط أن يكون العم (قسيسًا)، ولم تكن من المصادفة أن يتمسك العم، ومن ثم، ابنة الأخ بأن يتم الزواج فى كنيسة بفرنسا، ولم يكن مصادفة قط أن تظل سوزان على عقيدتها المسيحية فلا تتردد فى البوح بها بعد أن عادت إلى مصر وإعلانها من آن لآخر..

(كانت الفتاة الآتية من جنوب فرنسا – حيث درجة التدين تصل إلى أقصاها – تدرك أن عليها الآن مهمة يجب القيام بها، وهى مهمة يقف وراءها العم (الرمز الدينى)، والأفكار الغربية المتنامية المشبعة بروح استعمارية (المستشرقين)، وجهات رسمية وغير رسمية لا نعرف حتى الآن مصدرها، لقد كانت تدرك أنها لابد أن تضطلع بهذه المهمة مع كفيف مثقف سوف يكون له – بعد العودة إلى بلاده – شأنٌ كبير.

ومن هنا، لا نتعجب أن تتذكر سوزان، وهى تكتب كتابها (معك) فى السبعينات، عبارة قالتها لها صديقة فى العشرينات، لا نتعجب أن نقرأ لها عبارة كالتالى:

(لقد قالت لى صديقة عزيزة ذات يوم: لقد كان عليك أن تضطلعى بهذه الرسالة)

لقد كانت رسالة تصل إلى حد (الجنون) لكنها تصل بها إلى تخوم (الواجب).. ولهذا لم يطل ترددها أكثر من فصل واحد، عادت بعده لترسل إلى الطالب الكفيف بما يثلج صدره..

الفرنسية أولاً:

وعلى هذا النحو، فإن سوزان، بعد عودتها إلى مصر، لم تنس قط عددًا من الرموز التى كانت تمارسها حرفيًا بشكل دورى، كما أنها لم تتنازل قط عن أى تقليد أو عرف كانت تمارسه هناك فى البلد الأم..

مــن ذلــك، أن زوجة عميد الأدب العربى لم تكن تتحدث قط بالعربية، فعلى رغم أنها قضت فى مصر أكثر من نصف قرن، فإنها لم تسع إلى تعلم العربية، أو – حتى – التعرّف إليها، ويذكر معاصروها، أنها كانت ترفض بإصرار أن يجرها أحد إلى نطق كلمة واحدة بالعربية، وهو ما يفسر أن صديقاتها كن إما فرنسيات فقط، وإما مصريات يجدن التحدث بالفرنسية.

وقد كان من ثمرة ذلك (وما أكثر الثمار الســامة) أن أبناء طه حسين لم يحسنوا العربية بالقدر الكافــى، ومؤنــس – الابن – بوجه خاص، ظل يتحــدث إلى القريبين منه – حتى رحل – عن صعوبة العربية على لسانه، وقد كانت فرنسيته أكثر من عربيته، وهو يبرر ذلك حين يلح البعض فى الدهشة:

– أمى كانت فرنسية

ثم يضيف كاشفًا عن مساحات من الوجه الآخر لزوجة طه حسين:

– لم تكن تحب – أى ســوزان – أن تتكلم غير الفرنســية، ولا تحب أن نتكلم غير الفرنسية بحضورها..

وعلى هذا النحو، كانت الفرنســية الوحيدة فى (رامتان) – لاحظ أن اســم بيت طه حســين رامتان هو اســم عربــى الأصل – لا تتحدث العربية ولا تريد لغيرها مــن الأولاد أو الضيوف أن يتحدث بها.

وإذا و ضعنــا فــى الاعتبــار أن اللغة هى مــن أولى الرموز القومية لدى أى شــعب لأدركنا أن الحديث بالفرنســية لمدة نصف قرن يطوى معنى مغايرًا للمعنى الظاهر، فلا يكفى أن نقول إنها فرنســية الأصول، أو إنها الفرنسية الوحيدة فى المنزل، وإنما هو موقف ثابت، يطوى تغايرًا مع الوطن الثانى، ورفضًا للائتلاف معه، وذلك لأن وراء ذلك موقفًا آخر مقصودًا، أو غير مقصود (إذا أحسنا النية) يرفض التقابل مع هذا العالم، الأدنى مرتبة، والأقل عقيدة..

أسلوب الهيمنة:

وعلى رغم من أننا لا نعرف الكثير عن حياة سوزان الخاصة، فإن بعض الملاحظات تشير إلى مؤشر هام فى هذا الصدد..

إذ يبدو أن تأثير ســوزان على طه حســين كان طاغيًا وحادًا، ويصل إلى حد التســلط، ويذكر عدد من العاملين بالتليفزيون، حين ذهبوا للمرة الأخيرة للتســجيل مع طه حســين، كيف كان حضــور الزوجة عاليًــا إلى درجة مخيفة، وكيف أن وجهها المريد فى مواجهة طه حســين قبل التسجيل لم يتغير أبدًا.

ويحكــى عديد من الحاضرين أو المعاصرين لســوزان، القريبين منها، كيف أنها كانت تحيط طه حسين بعنف وقسوة لا مبرر لهما، ومن المحتمل أن بحث طه حسين فى الفترة الأخيرة عن

المال لإرضاء الزوجة كان دافعًا له – ضمن دوافع عديدة – ألا يتعامل مع الحكام الجدد بعد ثورة ١٩٥٢ بقسوة كانت من سمات طه حسين (العنيد) وخاصة قبل الثورة.

وتشير بعض الملاحظات إلى عدد من التصرفات التي سلكها طه حسين في الفترة الأخيرة من حياته، والتي – فيما يبدو – كان مضطرا إليها تحت إسراف الزوجة، وتمسكها بالسفر (صيفًا) إلى أوربا كل عام، من هذه التصرفات أنه أعاد طباعة عدد من كتبه تحت مسميات أخرى إما في القاهرة وإما في بيروت، وعلى سبيل المثال فإن كتابه (في الصيف) الذي نشر لأول مرة في القاهرة عام ١٩٣٣ أعيد نشره مع كتاب آخر (رحلة الربيع) بعنوان واحد هو (رحلة الربيع والصيف) في بيروت عام ١٩٥٧، كذلك أعيد طبع كتاب (الفتنة الكبرى) مع كتب أخرى بعنوان (إسلاميات) عام ١٩٦٧، كذلك فإن كتاب (الوعد الحق) أعيد طبعه مرة أخرى بعنوان (إسلاميات) في بيروت عام ١٩٦٧، كذلك، كتاب (مرآة الضمير الحديث) أعاد نشره مرة أخرى بعنوان (نفوس للبيع) عام ١٩٥٣، وكتاب (مرآة الإسلام) أعيد نشره في بيروت عام ١٩٦٧ بعنوان (إسلاميات)..

لقد امتد أسلوب الهيمنة إلى عديد من تصرفات طه حسين فحولتها إلى النقيض، وفي اعتقادنا أن دراسة جادة لم تنشر بعد حول دور الزوجة في الهيمنة على عميد الأدب العربي، وما استتبع ذلك من تأثير على فكره وليس استجاباته الحياتية فقط.

أين الرسائل :

ومثال ذلك أن طه حسين كانت له علاقات كثيرة ومتشعبة مع عدد كبير من كتاب عصره، ومن يتصفح النسخة الفرنسية من كتاب سوزان (معك) يلحظ نصوصًا كاملة أو شبه كاملة منقولة (بالحرف) من عدد من رسائل طه حسين إليها أو لعديد من رسائل أساطين الشعر والفكر في عصره إليه..

لسوزان (طه حسين) وجهان:

وجه نعرفه،

وجه آخر لا نعرفه،

الوجه الذي نعرفه هو الوجه المشرق، أو (الملك)، كما يصفه طه حسين في نهاية الجزء الأول من سيرته (الأيام)، أما الوجه الآخر، فهو الوجه المظلم، أو الجامد الذي يشير عند قليل من التعرف إلى حياة طه حسين الخاصة، والعامة، إلى التعصب والترفع.

وإذا كان طه حسين قد أطلق عليها صفة (الملك) في سيرته التي كتبها في أواخر العشرينات من القرن العشرين (تاريخ كتابة الجزء الأول من الأيام)، فإنه بين العشرينات حتى الآن؛ مياه كثيرة ألقيت في طاحونة الحياة تدفع بنا دفعًا إلى إعادة النظر والتأمل.

لقد كان طه حسين في هذه الفترة المبكرة مازال واقعًا تحت تأثير سوزان، وفى كنفها (وأكاد أقــول تحت ســيطرتها الكاملة)، متحدثًا كثيرًا عن هذا (الدَّيْــن) لها فى الجامعة بباريس أو فى العــودة معــه إلى مصــر (تزوج عام ١٩١٧ عــاد إلى مصر عام ١٩١٩)، وهو ما يشــير إلى أنه كان (مستطيعًا بغيره)، وقد كان هذا الغير منذ هذه الفترة المبكرة هو سوزان فى المقام الأول، فضلا عن إننا لا يمكن أن ننفى إعجابه إلى درجة كبيرة بالحضارة الغربية..

والواقع أننا لا نســتطيع أن نتتبع بعض ملامح ســوزان طه حسين حين جاءت إلى مصر لأول مرة حزينة لأنها تفقد جنسيتها الفرنسية حتى رحل طه حسين وعندئذ نلمح بعض الصفات التى تزيل عنها صفة الإشراق، وتقلل تلك الهالة التى حاول طه حسين إضفاءها عليها، وساعدها فى ذلك صمتها الطويل..

لقد كان هذا الوجه، الآخر، يحمل ترفعًا وكبرياء ينبع فى الأساس الأول من انتمائها للغرب (المتحضر) فى مواجهة الشــرق (المتخلف)، كذلك لا نخطئ شــيئا ليس بالقليل من هذا التعصب الــذى يحمل نقيضه (الدين الآخر) ويفســر به كثيرًا مــن ردود أفعاله، وربما كان مرجعه أيضًا، عدم إحساسها بالقدر الكافى بثقافة البلد الذى تنتمى إليه ومكانته الحضارية من كمون بعيد فى الشــخصية الأوروبية يقبع فى العقل الباطن ولا يفارقها، وإن ظهر من آن إلى آخر فى التصرفات العامة..

كان الأمر جنونًا

فلنهبــط أكثــر إلى بعض ملامح هذا الوجه – الآخر، قبل أن نحاول الاســتطراد أكثر فى هذه التأملات..

والهبوط يستدعى منا التمهل عبر عديد من المشاهد..

ربما كان الموقف الأول فى حياة طه وسوزان هو المشهد الذى ينبئ عما وراءه، وهو المشهد الذى بــدأ بتعرف أحدهما إلى الآخر، ولدينا فى الجــزء الثالث من الأيام وصفًا يفيض بالرقة والعذوبة يفصِّله طه حســين فى لقائه أول الأمر بالفتاة الفرنسية، وهو لا يكاد يغرق كثيرًا فى هذه المشاعر (اللذيذة) حتى تواتيه شجاعته فيصارحها بالحب فتجيبه:

– لكننى لا أحبك

وعلى ســبيل المثال، فقد كتب إلى طه حســين الرئيس الســنغالى ســنجور وســكايف ولالاند وأراجــون وأندريــه جيد وكازانوفا وبلاشــير وغيرهم كثيرون.. ومع ذلك فــإن النصوص الأصلية للرســائل، وما أكثرها، لا نعرف عنها شيئا، ويصف مؤنس طه حسين (الابن) هنا الطريقة التى كانت تســتولى بها ســوزان على رســائل طه حسين فيقول: إنها كانت «تســتحوذ على رسائله الخاصة والأدبية بوجه عام مثل رسائل (لوى ماسينون) و (أندرى جيد..).

ومازلنـا حتى الآن لا نعرف أين هى على الرغم من أهميتها فى السـياق الفكرى والسياسـى والأدبى..

وربما لهذا، حين ذهبت إلى زوج الابنة د. محمد حسين الزيات وطلبت منه بعض كتابات طه حسـين التى لم تنشـر أو مذكراته (علمتُ من بعض تلامذته أن له مذكرات محفوظة)، فأجابنى د. الزيات بأنه لا يوجد لديه شـىء منها، على رغم أنه سـلمنى فى هذا الوقت جزءًا لم يكن قد نشر بعد من رواية طه حسين (ما وراء النهر).

ومتابعتى لكتابات طه حسـين وحياته لسـنوات تجعلنى أجزم أن هناك العديد من الرسـائل المفقودة أو المختفية، أو عديدا من الكتابات الأدبية والفكرية التى لم تنشر حتى اليوم، استحوذت على أغلبها السيدة سوزان، واختفت فى مكان مجهول..

وتتعدد صور الهيمنة وتمتد إلى عديد من النواحى..

كنائس الأندلس

على أن الوجه الجامد، الذى يحمل مسحة واضحة من التعصب والتعالى الشديدين يطل علينا فى رحلات طه حسـين دائمًا مع زوجته، ومن أكثر ما يدهشـنا، فى هذا، أن رحلة طه وسوزان عام ١٩٤٨ إلى إسبانيا بدت تصبغ بصبغة غربية تمامًا، أو غربية يمتزج فيها الغرب بالتعصب.. فمن الغريب أن تقضى سـوزان طه حسـين فى ربوع الأندلس فترة طويلـة، وتهبط إلى غرناطة، وتتعرف على قصر الحمراء وتقترب من أشـبيلية.. إلى غير ذلك من الرموز التى ما زالت تحمل تاريخًا إسلاميًا ضافيًا.

إن المسافر إلى هذه المناطق التى كان الإسلام فيها مزدهرًا لمئات السنين لا يمكن أن يغفل هذه الآثار الإسـلامية الشامخة، ولسنا نأتى بجديد إذا قلنا: إن الآثار الإسلامية فى إسبانيا الآن من الكثرة والغزارة بحيث تعد السياحة إلى هذه الآثار هى المورد الأول للدولة.. ومع ذلك، فإن سوزان لا تندهش لعظمة قصر الحمراء، ولا لقمة البناء فى آلاف المساجد والحمامات والحارات والتكايا الإسلامية التى مازالت تشهد بعظمة العرب..

وسـافرت سـوزان أكثر من مرة إلى إسبانيا، وشهدت الأندلس الإسلامية، ومع ذلك، لم تذكر كلمـة واحدة عن ذلك، إنها تتحدث عن أشـجار السـرو.. تلك الأشـجار الخارقة، والمجامى الغرناطى، والمطاعم، والفراولة، وثقافة المضيف، ورقص الفلامنكو..

الأكثر من ذلك، أن طه حسـين دشّـن هناك فى عام ١٩٥٠ معهد الدراسات الإسلامية الذى لم تذكره قط، إلا فى موضع واحد، هو الموضع الذى قلّد فيه وزير التربية الإسـبانى طه حسـين (الوشاح الأكبر لصليب ألفونس العاشر).

ونستطيع أن نذكر عشرات الأمثلة في ذكرياتها التي كتبتها عن طه حسين بعد رحيله، مما يشير إلى أن زوجة عميد الأدب العربي لم تكن تدرك شيئا عن هذا الأدب، أو الأصح، كانت تريد أن تدرك منه ما يوظف أفكارها في النسق الذي جاءت من أجله، ومن هنا، لم توجد في حياة طه حسين إلا من خلال الإحساس (بالدَّيْن) الذي فرض عليه أثناء إقامته في فرنسا، والذي يطوق عنقه إلى درجة الاختناق.

هذه.. المرأة

ويؤكد الذين عرفوا سوزان أنها كانت معتزة بعقيدتها إلى حد بعيد، وقد راح الأب قنواتي في أحد المرات التي وجد الجزع فيها على وجه سوزان، يقول لها، مقويًا من عزيمتها:

– أنت مسيحية..

على أنه أن يكن الإنسان ذا عقيدة متينة (أيا كانت ديانته) فهذا شيء مستحب، ويحاط بالاحترام والتقدير. أما أن تختلط لديه الرؤية بين عقيدة وجنس وحضارة.. وما إلى ذلك مما يرقى به إلى درجة التعالي، فإن ذلك، في حد ذاته ليس من السمات الأولى في أية عقيدة..

ومع أن الأمثلة التي تبرهن على تعالي السيدة سوزان وتصلبها لا يمكن حصرها، فسوف نكتفي بهذا المشهد الأخير، الذي يؤكد، أن لهذه السيدة وجهًا آخر لا نعرفه..

وهذا المشهد يحكيه لنا مؤنس – الابن – عن أمه، فيقول:

(.. يوم تزوجت ابنتي، قبل عشر سنوات من شاب ياباني، جاءت إليّ من القاهرة لتشاركني بالفرح.

وسألها أصدقائي، وأجابت:

– ألا يصدمك أن تتزوج حفيدتك من شاب ياباني وبوذي، قالت بسرعة:

– لا

وعاد المتحدث يسأل من جديد:

– ماذا؟

وعاد صوت سوزان مرة أخرى بحدة:

– طالما جدتها، قبل ستين عامًا، تزوجت شابًا عربيًّا مسلمًا، وهي الفرنسية الكاثوليكية..

ولا نحتاج إلى تعليق..

وعلى ذلك، فإن لكل شيء وجهين، أحدهما مشرق، والآخر، مظلم..

وفي حالة سوزان، يعرف الجميع الوجه المشرق..

أما الوجه الآخر، المظلم، فلا يعرفه أحد..

إن الوجه الآخر من القمر: مظلم.. أليس كذلك؟

مراجع

– سوزان طه حسين، ترجمة بدر الدين عرودكى، دار المعارف ١٩٨٢.

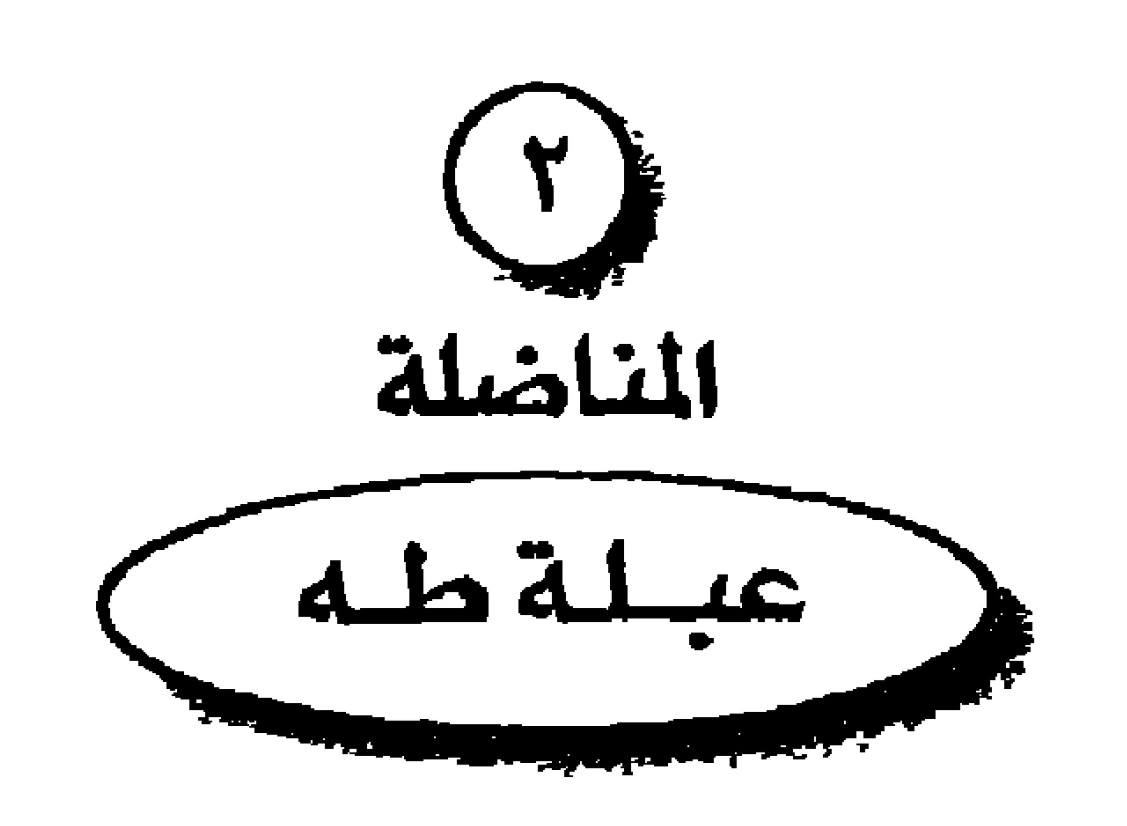
– حسونة المصباحى – الشرق الأوسط – ٢٧/ ١٠/ ٢٠٠٣

– لمصطفى عبد الغنى :

- طه حسين والسياسة، دار المستقبل، القاهرة، ١٩٧٦.
- تحولات طه حسين، هيئة الكتاب، جـ ٢، القاهرة، ١٩٩٠.
- طه حسين وثورة يوليو، جـ ٣، القاهرة، ١٩٨٩.
- المفكر والأمير، العلاقة بين طه حسين والسلطة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧.
- طه حسين.. الذى لا يعرفه أحد، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٩، القاهرة.

– أيضا يمكن العود إلى عدة مراجع على «الويب» :

- http://www.eltwhed.com/vb/showthread.php?t= 1200
- http://thaqafa.sakhr.com/motanaby/manaheg/ 0004.asp
- http://www.yabeyrouth.com/pages/index 808.htm
- http://www.annaharonline.com/ IGTIRAB/ IG2001DEC10.HTM
- http://www.koolpages.com/almalaika/tahahasin.html
- http://www.adabwafan.com/browse/ entity.asp?id= 634
- http://forums.cjb.net/gma7 nehaitham-post-1118.html
- http://www.alriyadh.com/ 200508/ 04//article 54736.html



يعترفن..

هؤلاء النساء يعترفن..

إحداهما عربية من نابلس

والأخرى عربية في جنيف

الأولى شخصية فلسطينية عاشت في سجن صهيوني أطلق عليه (نفي ترتسا) بنابلس، والأخرى، عربية - من أى بلد عربي - تعيش في أحد أحياء جنيف الراقية (حي اليودى)..

الأولى عاشت طويلا على الأرض العربية قبل أن تجد نفسها - فجأة - على الأرض الأسمنتية العارية داخل السجن..

والأخرى عاشت طويلاً على الأرض العربية قبل أن ترحل إلى المدينة السويسرية لتقضى حياتها على المقاعد الوثيرة التى أطلقت عليها - كما أكدت لى - الـ (شسترفيلد).

ولم يكن لى فضل في هذه الاعترافات غير تسجيلها، والتنصيص الذى أتحمل مسئوليته بشكل شخصى، إما لنقل جزء من تقرير، وإما مقتطف من (مذكرة) كما هو الحال، تحديدا، حين نقلت عبارات (طبق الأصل) من تقرير محامية المرأة السجينة، وهى فيلسيا لانجر. كذلك، كما هو الحال، حين نقلت من مذكرات المرأة الأخرى، المهاجرة، ما يوضح ألفاظها الإفرنجية أو الاحتفاظ بها كما هى لتأكيد ملامح هذه المرأة..

هذه اعترافات امرأتين: يعيشان، ومازالا..

آثرت أن أنقل (المادة الخام) لاعترافاتهما، دون أن أضيف.. وهو ما قصدته، أما الفهم والتوضيح أتركه لمن يقرأ هذه السطور.. وهذه هى الاعترافات..

عبلة: اسمى، عبلة طه، عشرون عاما

يوم: كنت..

(يقول التقرير الذى كتبته محامية عبلة إنها - أى عبلة - مدرسة شابة من القدس)

يوم: كنت.. حين قبض علىَّ في طريقى للذهاب إلى منزلى، إلى زوجى الذى كان قلقا علىَّ

جدًا، كنت غائبة منذ أكثر من ساعتين، في عمل هام، لم يكن أول مرة، لكنني في كل مرة لم أستطع أن أمنع نفسي من القلق الشديد حتى أتمه.

(يضيف التقرير:.. تهمتها كانت تهريب مواد متفجرة في حقيبة، على طريق جسر اللنبي).

وفي الطريق انتقل القلق إلى شقيقتي الصغرى حين ذكرت أنها اعتقلت منذ أيام قلائل بسبب - هكذا قالوا - مساعدة عائلات السجناء، وتوزيع المنشورات المعادية للاحتلال.

(.. يقول التقرير: إن شقيقة عبلة من خريجي السجون الإسرائيلية، تنتمي إلى أسرة طرد بعضهم إلى لبنان ولم يعد واعتقل البعض الآخر وأفرج عنه أكثر من مرة).

فزعت حين فوجئت بسيارة (أو صرصور كما نسمي هذه السيارات في الأرض العربية)، ويخرج منها أكثر من عشرة رجال يهجمون عليَّ بقسوة شديدة قبل أن ينتهي الجسر، وعاملوني بفظاظة شديدة، ولم يهتموا بصياحي العالي..

(خرج من سيارة تابعة للجيش الإسرائيلي - يضيف التقرير - أحد عشر جنديًا مدججين بالسلاح، أوقفوا المرأة العربية، حدقوا طويلا في بطاقتها الشخصية، نزعوا منها حقيبتها، استقلوها..)

يوم:

اخذوا بي إلى السجن، وهناك، ضربت بشكل قاسٍ جدًا، ومن كثرة الضرب المبرح أغمي عليَّ أكثر من مرة.

(ربطوا يديها خلف ظهرها، وبدأ، الجنود، بالتناوب، يضربونها، خمسة أو ستة جنود كل مرة، ولما تعبوا، تركوها، لفترة، وعادوا ثانية بعد منتصف الليل لكي يوقظوها بغلظة، ويبدأ التحقيق من جديد - التقرير)

حين تمالكت نفسي من أثر الضرب والإهانة، أجبت: إنني لا أعرف أحدا، ولم أر شيئا، ولم أرتكب ما تتحدثون عنه، سخروا مني وألقوا بي في الزنزانة الرطبة من جديد.

(ظلت عبلة لساعات تسمع أصواتا لشباب وشابات يعذبون، وتسمع أسئلة متلاحقة لآخرين في الزنزانات المجاورة، وترى كل ذلك بشكل متداخل مما يوحي أن ذلك كله من أجل إفزاعها: من يحط الشعارات المعادية للاحتلال على الحيطان؟ من وراء حادث النقب..؟.. إلخ)

يوم:

في كل مرة كنت أقول لهم - من أثر الضرب الشديد - إنني حامل فيسخرون مني، ويعودون إلى الضرب المبرح بعد أن يكونوا قد وضعوا يدي خلف ظهري ويوثقونها بشدة.

(.. إن عبلة طه كانت حاملا فى الشــهر الســادس بالفعل، وهو ما كشف عنه الفحص الطبى فيما بعد).

يوم:

حين يئســوا من اعترافى على الآخرين ألقوا بى – بعد العذاب المتصل – فى غرفة ســجنت فيها بائعات الهوى من اليهوديات، وقد هاجمننى هؤلاء اليهوديات وضربننى بقسوة حتى فقدت الوعى، ثم مزقن ملابسى أمام عيون رجال الشرطة..

(يؤكد التقرير أن المعتدين عليها من النساء مزقن ملابسها تمامًا وتركنها عارية تمامًا).

يوم:

أدخلونى بعد ذلك لمدة ثمانية أيام فى زنزانة بدون مرحاض. ولثلاثة أيام منعونى من الخروج لقضاء حاجتى..

(....)

يوم:

الشرطى دوبك رفسنى وشتمنى، بينما كنت مستلقية ومغشيًا علىَّ من شدة الضرب، حتى إننى فى وقت ما، لم أكن أحس بأى ضرب على رغم استمرار العذاب كالمطارق..

إننى حامل، ماذا أفعل

(....)

يوم:

إننى حامل فى الشــهر الســادس، بدأت فى النزف الشــديد من أثر الضرب والتعذيب، زاد النزيف، استمر، طلبت طبيبًا، لم يستمع إلىَّ أحد..

أنــا حامــل – صحت من الخوف والألم – هددتنى الشــرطة بإخراج مــا يوجد فى بطنى إذا تكلمت (هكذا)..

أنا حامل – قلتها فى صمت وتمزق..

أنا..

يوم:

زاد الألم، وأحس الجميع من حولى بما أحس به، زميلاتى المسجونات تصايحن فى الزنزانات احتجاجًا لما يحدث لى..

(.. ألقيت الســجينات – عقابًا لهن – فى زنزانات بعد أن احتججن بشــدة على هذا الوضع المخزى).

بدأت آلامى تتزايد، وبكائى يعلو أكثر، ظلت النساء السجينات يشجعننى بصوت عال..

(.. حين زاد الضغط على إدارة السـجن أخذها الجنود إلى المستشفى معصوبة العينين وأخذوا يساومونها لتتعاون معهم ضد زملائها...)

وحـين عدت إلى الزنزانة ثانيـة ورفضت الاعتراف أو التعاون، عرفت من محاميتى أنه حكم عليَّ بالسجن أربع سنوات، لم يشغلنى غير آلام الحمل والخوف من أن ينفذوا ما كانوا يقولونه فيخرجوا أحشائى ويعبثون بجنينى.

(.. حكم على عبلة بالسجن أربع سنوات، وطالبت أنا باسم العدالة - لا الرحمة- أن تخرج السجينة لتضع مولودها خارج السجن دون جدوى.

يوم:

الألم المض يمزق أحشائى، أمضغ (الوجع)، أقبض على ملابسى، يعتصرنى الخوف، أمسك بأسنانى ملابسى، أخشى أن أصيح من الألم، أخشى أن أسمع ما يهددونى به: سنخرج ما فى بطنك إذا صحت أو تكلمت..

هناء:

اسمى هناء، هناء عبده

عمرى ثلاثون عاما

يوم:

أعيش فى جنيف - العاصمة - منذ سنوات بعيدة..

إذا أردنا تحديدا فهو من عشر سنوات على وجه التقريب..

أسـكن فى حى (البودية) الهادئ، يسـمونه هنا حى الأثرياء، لماذا: سـألت نفسى وأجبت: ربما لأنه يؤدى إلى جسر (المون بلان) ونهر الرون..

آه، كـم مللت هذه الأحياء الغربية التى توشـى بالجمال، إنــه الجمال البارد، المصقول، أى جمال هذا الذى لا يتغير قط لسـنوات كثيرة، إن الملل يتسـرب إلىَّ فيحيل كل شـىء إلى رتابة مخيفة.

الملل فى كل مكان..

الملل، الملل يذكرنى بدقات بدر شاكر السيَّاب: مطر مطر.. إنه الملل ثم الملل..

الملل - مثلاً - أجده فى السيارات الخضراء التى تسرع كل يوم أمام بيتى، وفى هذه السيارة الخضراء التى تسـرع بى كل يوم جيئة وذهابًا إلى (جسـر المون بلان) فتعبره، لأصل بعد ذلك إلى حى الأزياء الراقية (بون جينيه)..

بصراحة، إننى حتى أذهب لشراء أزيائى بدافع الملل..

إننى بمجرد أن أدفع الفاتورة يجيئنى إحساس حاد أن أذهب بهذه الملابس إلى النهر وألقيها وأعود مرة أخرى، لأستمتع، هروبًا من الملل، بلحظة الشراء والدفع والذهاب، هل تصدقون..

يوم:

يوم آخر، ياه..

خليل اليوم يدعونى إلى الكلوب، لابد أن أرتدى من الفساتين التى اشتريتها أمس، هناك عدد كبـير مـن المدعوين، خاصة هؤلاء الرجال الأثيرين لى، هؤلاء الرجـال الأثرياء، جدًا.. أصحاب الملايين، وأصحاب هذه المواهب الـ (بيزنسمانية).. فى أفعالهم وحركاتهم وعيونهم..

كم أحب هؤلاء العمليين.. المؤثرين..

آه، نسيت زوجى، إنه ينتظرنى منذ أكثر من ساعة، حين عدت إليه وجدت هذه الابتسامة الباردة، والعيون الزجاجية، إن زوجى إحدى سلالم المجد إلى مجتمع الثراء العربى فى جنيف، لمجرد أن رآنى آتية، راح يشغل نفسه بصحيفة لاسيوس، وتربيون جنيف..

استأذنت منه مرة أخرى..

عـدت إلى غرفتـى.. ارتديت من جديد بنطلونـا (جينز)، ومعطفا من فـراء الفيزون (البلاك دا يمتد)، حملت أثناء الهبوط لفافة (سيجارة) لى ولزوجى.

ابتسمت لزوجى الذى كان ينهض، وهو يتناول منى اللفافة فى (الأكوافيلتر)..

خرجنا..

يوم:

حين جلسـنا فى النادى أحسسـت بضيق كل يوم أمام هذا التليفزيون الذى مازال يذيع دمار لبنان، وخلافات الزعماء العرب، وصور (الانتفاضة)، ضقت بهذه الأشياء، إنها غريبة علىَّ هنا فى جنيف، مالى أنا وهؤلاء..

لقد انقطعت صلتى بهم وبزوجى نديم من سـنوات، ربما هو مازال يورد السـلاح لهذا الطرف أو ذاك فى العالم العربى، أما أنا، فلا أريد أن أعرف شيئا عن ذلك..

انقطع خيط الضيق فى رأسى حين لمحت جاك..

جـاك الرجل (أورجينال) خالص.. لقد اكتشـف مدى ضيقى فذهـب إلى هذا الجهاز اللعين وأغلقه..

إنـه ليس كزوجى يدخن كثيرًا، ولا يتحدث إلا عـن صفقاته فى العالم الثالث، فإذا تحدث عنى، فأنا أيضًا، إحدى صفقاته التى يقدمها لمن يشترى فى هذا المجتمع..

إن جاك يتحدث – على العكس من زوجي – عن (فون كاريان) ويلتهم (الكتشاب)، ينظر إليّ بنهم، اليوم سمعت حوارًا بينه وبين البارمان عوني:

– جميلة فعلاً

– جميلة، والأكثر أن جمالها يزينه تاج غباء

– لكن، لا تنسَ أنه جمال المرأة دائمًا، أنه جمال ممزوج بدهاء أنثوى.. لا تنسَ ذلك

حركت رأسي إلى بعيد، وتجاهلت النظرات..

عدت أسمع:

– هذه البنت زى السردينة، متواضعة وشهية

– ولابد أن يتم التهامها.

لجأت إلى الكأس وأنا ألجأ للغباء المحبب للجميع هنا، لمحته جاء ورائى يقول:

– هناء ألا نخرج؟!

– وما المانع – قلت بدلال –، فقال: هيا إذن إلى الجرانج..

– ولماذا لا نذهب إلى مقهى ميديترانه، فالمقهى خير من الحديقة العامة..

يوم:

يطاردنى هذا الجهاز اللعين بالانفجارات والمشاكل، مالى أنا، لبنان، الخليج.. الـ حمدا لله، جاء جاك، حين جلس بدأ يحرك نار موقد (الشومينيه)، قلت له فجأة:

– أين نذهب اليوم؟

– المادى مايوركا

– لا، مللت هذا الطريق

– إذن، ألا تريدين أن ترى في منزلى الأتارى قبل أن نغادر المكان تنامت إلى موسيقى برامز..

يوم:

حين دلفت إلى منزل جاك التقت عينى بعيون هذه الأسماك الملونة التى تسبح فى (الأكواريوم)..

كانت الأسماك الملونة تمضى فى خدر شديد، ولا تلوى على شيء.. لا هدف، لا طريق،.

استيقظت فجأة من خدرى وأنا أمضى إلى خارج منزل جاك بعد ثلاث ساعات..

لا أعرف لماذا، وأنا أحدق، فى عيون الأسماك فى سائل (الأكواريوم).

لا أعرف لماذا تذكرت نفسى..

(*) الجدير بالذكر هنا إننا أمام حالات بطولية للأسـيرات الفلسـطينات، ويمكن أن تسـرد الالاف من هذه البطولات، فإذا أردنا أن نتحدث عنهن بشـكل حماسـي مثير، يمكن أن نقول، كما يتردد في كثير من المراجع والمواقع العربية والأجنبية، وستعيد هذه المراجع الشكل البانورامى لأولئك البطلات،

نقرأ في هذا العديد من الدراسات منها على سبيل المثال: تجربة الأسيرات على موقع:

- http://www.ikhwan.net/asra/aseerat_ report15.htm

إن المعلومات الأولية تشير إلى أنه دخل المعتقل منذ بداية الاحتلال حتى الآن ما يقارب (عشرة آلاف) امرأة فلسطينية. وشمل الاعتقال الفتيات الصغار وكبار السن منهن، وكثيراً ما كان من بين المعتقلات أمهات قضين فترات طويلة في السـجون مثل ماجدة السلايمة وزهرة قرعوش وربيحة ذياب وسميحة حمدان وغيرهن من الأسـيرات القدامى، ومثل ابتسام العيساوى وإيمان غزاوى، وقاهرة السعدى، وإيرينا سراحنة من الأسيرات الجدد.

وشـهدت أكبر حملة اعتقال للنسـاء الفلسـطينيات الفترتان ما بين (١٩٦٨ - ١٩٧٦) وفي فـترة الانتفاضـة الأولى، وبالطبع في الانتفاضة الثانية وانتفاضة الأقصى. وتعرضت الأسـيرات للكثـير من حملات التنكيل والتعذيب أثناء الاعتقال، وتفيد شـهادات عديدة للأسـيرات أنهن تعرضن للضرب والضغط النفسـي والتهديد بالاغتصاب. وشكلت أعوام ٦٨ - ٦٩ وكذلك سنوات الانتفاضتين الأولى والثانية سـنوات قاسية جداً في تاريخ الحركة النسائية الأسيرة، وخاصة في بدايـة التجربة الاعتقالية وبدء النضال والكفاح للدفاع عن ذاتهن داخل السـجون من مخططات تدمير وتحطيم النفسية والإرادة الوطنية لدى الأسيرات.

قد خاضت الأسيرات منذ بداية تجربة الاعتقال، العديد من النضالات والخطوات الاحتجاجية والإضراب الجزئى أو المفتوح عن الطعام إلى غير ذلك من إنجاز :

- http://www.vahdet.com.tr/filistin/dokuman/kitap/kitap905/.html

(ونلاحظ هنا إننا أمام أسماء كثيرة لفدائيات فلسطينيات ومعتقلات بالفعل منهم — على سبيل المثال —: سونا الراعى، ونسرين طه، وعبير عمرو، وسعاد غزال، ومها العك، و أمنة منى، سارة عيسى عمرو، وجدان أحمد بوجة، عبير ناصر أبو خضير، هناء أبو خضير، ويتواجدن في سجن النسـاء في الرملة وفي مراكز التوقيف في ظروف صعبة حيث تم وضعهن في قسـم السـجينات الجنائيات ويتعرضن لاسـتفزازات يومية وتقليص في سـاعات النزهـة المحددة لهن إضافة إلى حرمانهن من إدخال الأغراض اللازمة عبر الزيارات).

- أيضا انظر إلى العديد من المراجع والمصادر، انظر على سبيل المثال لمصطفى عبد الغنى:

- نقد الذات فى الرواية الفلسطينية: دار سيناء. القاهرة ١٩٩٨.

- الغيم والمطر، الرواية الفلسطينية من النكبة إلى الانتفاضة: دار جهاد ٢٠٠٢.

الطبعة الثانية، الهيئة العامة للكتاب ٢٠٠٣.

كما يمكن العود إلى كثير من مواقع «الويب» الواعية

منها على سبيل المثال : الفلسطينيات الأسيرات: الواحة، انظر:

- http://www.26sep.net/newsweekarticle.php?lng= arabic&sid= 5756

- http://www.alrepat.com/vb/showthread.php?t=19808:



يتحدثون عنها فى أمريكا على أنها (السيدة الأولى)..

ويتحدثــون عنها فى إســرائيل على أنهــا الدكتورة التى تتحدى القانون الإســرائيلى ويجب محاكمتها.

ويتحدثون عنها داخل الأرض المحتلة، وبين نساء الانتفاضة وأبطالها على أنها الأم الشجاعة التى لا تتردد فى السعى لتؤكد للعالم كله عدالة القضية الفلسطينية؟

ويــرددون اسمها فــى أروقة الأمم المتحدة، وخلــف الأبواب فى (لنــدن) وراء نادى الصنوبر بالجزائر، وينتظرونها فى واشــنطن أو نيويورك لتجرى (مع زميلها فيصل الحسينى) محادثات مع جيمس بيكر وزير الخارجية الأمريكى ويتربصون بها فى إســرائيل بأنها ســتحاكم لأنها – بحسب القانون الإسرائيلى– سوف تقدم للمحاكمة..

فمن هذه (السيدة الأولى)..؟

وما حكاية الدكتورة حنان؟

لنحاول التعرف عليها

صورة:

د. حنان عشــراوى، هى التى تمثل (مع زميلها فيصل الحســينى) الوفد الفلسطينى، المكلف بعقــد اجتماعــات تمهيدية وترســيخ تصورات معينة قبل البدء فى مؤتمر الســلام فى ديســمبر ١٩٩٣..

ود. حنــان هــى التى تمثل مع زميلها المجلس الوطنى الفلســطينى (البرلمان الفلســطينى فى المنفــى) بعــد أن رفضت إســرائيل التعامل مباشــرة مع ممثــل هذا المجلــس – منظمة التحرير الفلسطينية –..

وهى التى تلعب أقوى الأدوار لتمثيل الشعب الفلسطينى كله، وتحاول الإفادة من كل المتغيرات لإحداث استقلال للقرار الفلسطينى الذى يستطيع أن ينال حقوقه المسلوبة فى المؤتمر..

لنقترب أكثر من د. حنان قبل أن نتمهل عند هذا الدور

صورة شخصية :

وإلقاء الضوء على صورتها الشخصية يقربنا أكثر من (تكوين) هذه السيدة ودورها الشجاع في الأحداث الجارية والمؤتمر المقام الآن..

- أنا من مواليد هذا الشهر ٨ أكتوبر

- في أى عام يا دكتورة ؟

- عام ١٩٤٤ وولدت في رام الله.

- وكيف تعيشين في القدس ؟

- ولماذا لا أعيش فيها، فإنى فلسطينية، ثم إن والدى الطبيب كان يحمل هوية هذه المدينة وتتوالى ملامح الصورة الشخصية أكثر.

الدكتورة حنان عشراوى درست بالجامعة الأمريكية ببيروت وحصلت على (الدكتوراه) الإنجليزية من جامعة فيرجينيا في الولايات المتحدة الأمريكية، وعملت لمدة ثماني سنوات بمنصب رئيس دائرة اللغة الإنجليزية في جامعة بيرزيت، ثم أصبحت عميدة لكلية الآداب في نفس الجامعة لأربع سنوات أخرى، أما اليوم فهى تعمل أستاذة مساعدة في قسم اللغة الإنجليزية بالكلية..

ومع أن د. حنان لم تكن أبرز النساء الفلسطينيات في العمل القومى، فإنها برزت - فجأة - على أنها أشهرهن على الإطلاق..

هناك نساء كثيرات لهن شهرة كبيرة من سنوات بعيدة: ريموندا الطويل، سميحة خليل، زهيرة كمال، سميرة أبو غزالة.. إلخ، غير أن د. حنان استطاعت أن تصبح، بوجودها الحى في عديد من الندوات، وحضورها المؤثر في جميع الندوات والمؤتمرات، أن تكسب سمعة وطنية عالية، حتى إنها شاركت في قرابة سبع مقابلات مع بيكر بتوكيل من منظمة التحرير..

واللافت للنظر هنا أنه على رغم أن حنان عشراوى تنتمى إلى أسرة أرستقراطية، فإن ذلك لم يمنعها من أن تندرج في جميع فئات الشعب الفلسطيني، خاصة أبناء الانتفاضة، فذاب التكوين الأرستقراطي في الشعبي، وراح يعبر عنه تعبيرًا وطنيًا جارفًا، ولم تكن الطبقة - كما يردد أصحاب النظريات - حائلاً دون الهبوط إلى ساحة الكفاح الوطنى في أصعب فتراتها..

وكان أظهر العلامات في وعى حنان عشراوى وعمليتها أنها، عقب إغلاق جامعة بيرزيت التى تعمل بها - على أثر تصاعد الانتفاضة - ركزت جهودها في العمل الدبلوماسى لفهم الأوراق التى تتعامل بها أمريكا الآن في المشكلة العربية، وكان لها من الذكاء بحيث عرفت كيف تدار الأوراق وتفهم، وأين تقع بالضبط الورقة الفلسطينية التى تعيد الأرض للشعب الفلسطيني..

إضاءة :

كانت حنان عشـراوى تعرف جيدًا سـعى الولايات المتحدة لإقامة مؤتمر للسلام، وفى الوقت نفسـه تعرف النوازع والأسباب التى تفرض نفسـها على الولايات المتحدة، إنها تقول بعد سبع مقابلات مع بيكر:

– ليس هناك شك فى أن بيكر جاد فى البحث عن حل لمشكلة الشرق الأوسط

ثم تضيف بسرعة :

– ولكن، أيضًا، أعرف أنه عمل براجماتي للغاية.

بيكر يتعامل مع حقيقة سياسية، إلا أن البراجماتية الشديدة غالبًا ما تقود الناس إلى التضحية بحقوقهم ومبادئهم..

إنهـا تريـد أن تقول: إن أية محاولة يريد أن يدلل بهـا الوزير بيكر على الموقف العربى بعد أزمة الخليج محاولة فاشلة..

وأن هـذا يسـتتبع أن يفهم الأمريكيون أن للعرب حقوقًا لابد مـن الحصول عليها، وإن على إسرائيل موقفًا ينبغى فيه رد الحقوق إلى أصحابها، وإنه – حتي – إذا أعربت أمريكا أنها تبذل جهدًا كبيرًا للحديث مع إسـرائيل لتغيير موقفها (لم تكن مسـألة القروض قد ظهرت بعد)، فإن الكلام وحده لا يكفى..

ينبغـى اتخـاذ موقف نابع من الضغط الحقيقى على إسـرائيل التى تعودت أن تلقى بوعودها عـرض الحقائق، وأن تتنـازل عن قرارات الأمم المتحدة التى سـبق وأن تظاهرت للامتثال لها، وحتى الشجب والاستنكار العالمى لم تعد تأبه به.

وقد راحت حنان عشـراوى منذ فترة مبكرة تتحدث بوضوح عن عديد من القرارات التى أمن عليها وأيدها فيما بعد نص البيان الختامى للدورة العشرين للمجلس الوطنى..

ولا يمكن أن نثبت هذه الإضاءة على مواقف حنان عشـراوى دون أن نشـير إلى بعض الأسس التى أشـار إليها المجلس الوطنى الفلسـطينى بعد الالتقاء مع كل من حنان عشـراوى وفيصل الحسينى:

– الانسـحاب الشـامل من الأرض العربية الفلسـطينية بما فيها القدس وتحقيق مبدأ الأرض مقابل السلام.

– القدس جزء لا يتجزأ من الأرض الفلسطينية

– وقف الاستيطان.. مع ضمانات دولية

– حق منظمة التحرير لتشكيل وفدها

– تنسيق المواقف العربية لضمان الحق الشامل

– ضمان ترابط مراحل الحل

ومـا إلى ذلك مما يلقي (إضـاءة) كاملة على الارتباط الكبير بين حنان عشـراوي وفكر منظمة التحرير وهو ما أسهم في تأكيد دورها حتى الآن في الجانب الأمريكي.

الخط الحاسم :

ويمكن القول بأن حنان عشـراوي كانت أهم الخطوط في التئام الأطراف الفلسـطينية، فحين تم اجتماع المجلس الوطني الفلسـطيني بالجزائر، ووجد أعضاء المنظمة أنهم أمام خلافات كثيرة في الرأي مما لا يحسـم قضية الاشتراك في مؤتمر السلام، لم يجد الحاضرون أمامهم غير حنان عشراوي..

لم يجدوا غير هذه السـيدة التي كانت تدخل في مفاوضات مبدئية مع بيكر فاسـتدعوها إلى الجزائر، واستطاعت حنان عشراوي أن تمثل الخط الحاسم في لوحة الحسم الجماعي..

ويلاحـظ أن عددًا كبيرًا من الحاضرين كانوا على خلاف مع هذه السـيدة، ومع ذلك، فإنها حين دخلت القاعة وقف الجميع وحيوها وصفقوا لها بحرارة..

كان عـدد كبـير من الحاضرين يرون رفض حضور هذا المؤتمر، على العكس من عدد آخر كان يدعـو إلى العكـس، الحضور، والمطالبة بالحقوق الفلسـطينية، وظلت حنان عشـراوي تتحدث لساعات لتحسم هذا الرأي الأخير..

إنها راحت تتحدث عن قناعات بيكر – الممثل الأمريكي – وأحلام إسرائيل– الممثل المحتل– إذ راحت تقول كثيرًا..

– إننا شعب غير مهزوم على رغم أننا تحت الاحتلال.

لنا مبادئ لا يمكن التخلي عنها..

لنا إرادة مستقلة وثقة بالنفس، وثقة بالحق الكامل.

كان ملخص ما تؤكده حنان عشـراوي هو ضرورة الاشـتراك في مؤتمر السـلام وأهمية متابعة الحوار مع الإدارة الأمريكية، قالت عشراوي بالحرف الواحد:

– لقد أكد لنا بيكر في اللقاءات الأربعة الأخيرة أن الولايات المتحدة غير معنية بتقسيم الشعب الفلسـطيني (أي الفصل بين الداخـل والخارج) كما أنها غير معنية بتغيير القيادة الفلسـطينية وتستطيعون الاتصال بقيادتكم كما تشاءون وتَلَقّي تعليمات منها..

كان وضوح عشراوي ضد رغبة إسرائيل برفض تمثل المنظمة، أو رفض تمثل القدس «إننا نحمل هوية تمكين القدس ولكن لا يوجد أي فلسطيني أو عربي مستعد للاشتراك في مسيرة السلام بدون

تمثيل القدس أو أية موافقة تعطى لإسرائيل الحق على ضم القدس» (أهرام ١٤ أغسطس ١٩٩١).

وعلى ذلك، نجحت حنان عشــراوى (مع فيصل الحسينى) فى إنجاح صيغة مشتركة لمنظمة التحرير كان من شأنها التوسط بين المجلس الوطنى وواشنطن بشكل خاص.

كان على الدكتورة حنان أن تطرد شـبهة اليأس أو التقاعس للاشـتراك فى هذا المؤتمر الذى يشارك فيه الأقطار العربية تحت رعاية ومسئولية أمريكا.

على أن هذا الموقف كلفها تحرش إسرائيل بها، فمن المعروف أن هذا اللقاء الذى تم بالجزائر ترفضه إســرائيل؛ إذ إن هناك قانونًا إسـرائيليًا لا يسـمح باللقاء مع أحد ممثلى هيئة التحرير الفلسطينية وبذلك، كان على هذه السيدة أن تتعرض للمحاكمة بعد أن تعود إلى إسرائيل..

كانت تعلم ذلك، لكنها لم تتردد

تكوين:

كان هذا هو تكوين الدكتورة حنان.. الشجاعة الفائقة..

وهــذا التكويــن لم يكــن وليد اللحظة، وإنمــا يعود إلى بدايات الســبعينات، ثــم فى نهاية الثمانينات، ثم الآن تكرر نفس الموقف..

المرة الأولى:

كانت تعود من بيروت، بعد أن أنهت دراسـتها، وما كادت تصل إلى بيت أسـرتها فى رام الله حتى تم استدعاؤها:

– إلى أين؟

– إلى مقر الحاكم العسكرى الإسرائيلى

– لماذا؟

– بتهمة أنك إرهابية (..)

– وماذا أيضًا؟

– وبأنك عضو فى اتحاد الطلاب الفلسطينيين.. هل تنكرين؟

– لا أنكر، ولكن..

ولم يـترك لهــا أن تدافع عن نفســها، وإنما تم تهديدها، ولم يطلق ســراحها إلا بدفع كفالة كبيرة جدًا.

المرة الثانية:

واتهمت أكثر من مرة فيما بعد، كان أهمها اتهامها بالســفر إلى لندن، والتقاؤها هناك بممثل منظمة التحرير الفلسطينية، وتم استدعاؤها:

– لماذا تم خرق القانون الإسرائيلى؟

– كيف؟

– بالسفر إلى لندن والالتقاء بممثلى منظمة التحرير، و..

– لم نخرق أى قانون؟

– وخصوصًا أنك من القدس التى ضمت إلى الأرض الإسـرائيلية بموجب تعديل القانون الذى يسمى بـ «مكافحة الإرهاب»..

– إن ذلـك القانـون متوارث عن تشـريعات الانتداب البريطانى فى فلسـطين قبل أن تصبح إسرائيل.

– نعرف، ونعرف أن العقوبة تصل إلى ثلاث سنوات سجن.

– إذن، لم نخرق أى قانون.

– هل يمكن أن نجد تفسيرًا لذلك؟

– أى تفسـير، لم نخرق أى قانون ونحتفظ بحقنا فى الصمت، وتضحك الدكتورة حنان وهى تقول لأحد محدثيها:

– وعلى أية حال، هل يستطيع أحد أن يؤكد ذلك.

– ويسقط فى يد هيئة التحقيق، ويتقرر الإفراج عنها بعد ساعتين..

المرة الثالثة :

ثم كانت المرة الثالثة، هذا اللقاء مع أعضاء دورة المجلس الوطنى الفلسطينى؛ إذ التقت معهم حوالى ٢٤ سـاعة، ولكن لم يسـمح بظهورها أمام الصحفيين كى لا يكون ذلك قرينة تحاكم بها حين تعود إلى إسرائيل.

لقـد أقامـت د. حنان فى نادى الصنوبر حيث قصر الأمم، واسـتطاعت أن تنجز مهمتها فى سـرية ومهارة شـديدتين مما جعل إسـرائيل تقع فى حيرة شـديدة؛ إذ كيف توجه إليها تهمة مخالفة للقانون الإسرائيلى حين تعود.

الأكثر من ذلك أن عديدا من المصادر فى منظمة التحرير الفلسـطينية ذكرت مغادرة عشـراوى للجزائر بعد التحدث أمام المجلس..

على أية حال، فقد اسـتطاعت عشـراوى العودة إلى لندن دون أن تترك قرينة واحدة تشـهد عليها بأنها كانت قد جاءت إلى الجزائر، وتسـجل لنـا مندوبة وكالة رويتر هذا الحديث بينها وبين الدكتورة حنان فى فندق بلندن، وقد جرى الحديث تليفونيًا:

– نعم، أنا د. حنان عشراوى

– هل تنفين أنك كنت فى الجزائر؟

– نعم.. إننى أنفى القصة.

– أين كنتما طوال اليومين الماضيين؟ (مع الحسينى).

– كنا فى إنجلترا.. ولم نغادر المملكة المتحدة.

إلى آخر هذا الحديث المراوغ..

وفى الأرض المحتلة نقرأ أن القوات الإسرائيلية مازالت تتحدث بأن أناسا من يهودا والسامرة (يقصدون الضفة الغربية) شاركوا فى اجتماع المجلس الوطنى الفلسطينى فإن الخطوات التى يمليها القانون ستتخذ فى حقهم.

وفى الوقت الذى تكتب فيه هذه السطور يكون الوفد الذى تمثله عشراوى يتأهب للقاء بالوزير الأمريكى بيكر، للتأكيد فى الاشتراك فى المؤتمر القادم، بما يشير إلى أن عشراوى هنا تمثل اتجاها جديدًا فى الموقف الفلسطينى، اتجاه يرى ضرورة فتح كل الأبواب – كما تقول – لا يمكننى إغلاق الأبواب وتبنى الصمت لا الواقع الأليم، أو لأن المعطيات ليست فى صالحى..

ويبدو أن الوعى لدى حنان عشراوى يصل إلى أقصاه بالفعل، فيرغم أنها تهدد – من قبل الإسرائيليين – بأنها لن تشارك فى مؤتمر السلام لكونها تتعامل مع المنظمة، وهم يرددون أنهم لا يعترفون بالمنظمة، كما أنها من ساكنى القدس، وهم يرفضون – كما يزعمون – التنازل عن القدس.. على رغم هذا، فإنها لم تتوقف لحظة عن دورها..

وهذا الدور لم يرهبه تخويف المسئولين الإسرائيليين: ديفيد ليفى وزير الخارجية، إيهود جول المتحدث باسم رئاسة مجلس الوزراء، وشامير نفسه.. فراحت تجاوز التهديدات الإسرائيلية والمواقف السيئة إلى التعامل مع شروط مؤتمر السلام لإنقاذ شعب الانتفاضة الفلسطينية من ربقة الاحتلال.

الأكثر من هذا أن لحنان عشراوى وعيًا مكنها من استشراف ما يحدث فى المستقبل، فحين سألها مسئول الـ «بى بى سى» (الإذاعة البريطانية) فى ٢٣ يونيو – أى من قرابة ثلاثة أشهر – عن نصيحة السفير الإسرائيلى فى واشنطن لحكومته فى الاختيار بين الاستيطان أو توقع ضمانات أمريكية للقروض:

قالت حنان عشراوى بما شبه النبوءة: إن التوجه العالمى هو لربط ضمانات القروض لاستيعاب المهاجرين الجدد فى إسرائيل بقضية دخول إسرائيل لعملية السلام وعدم الاستيطان فى الأراضى المحتلة.. وإن إسرائيل لن تقوم بوقف عمليات الاستيطان بسهولة..

وهو ما تنبهت إليه الحكومة الأمريكية – بالفعل – فيما بعد، وأثارت ربط قضية القروض بالاستيطان، والنصح بتأجيلها إلى ما بعد علمية مؤتمر السلام.

والآن،

هل تعرفون الدكتورة حنان؟

أم مشغولون بأشياء أخرى كثيرة؟

المراجع

(*) انظر على سبيل المثال، كما تردده المواقع الحديثة، وبشكل تقريري:

(د. حنان داود خليل عشراوى هى ناشطة سياسية فلسطينية. كانت قائدة فى الانتفاضة الأولى، والمتحدثة الرسمية باسم السلطة الفلسطينية. عشراوى من مواليد ١٩٤٦، أستاذة جامعية وأمّ لبنتين، اختيرت فى ١٩٩١ لتمثيل منظمة التحرير الفلسطينية فى محادثات سلام الشرق الأوسط فى مدريد فى أكتوبر. إتقانها الانجليزية ومهارات التفاوض وفق النمط الغربى حقق لها إعجاب خصومها الإسرائيليين فى المحادثات التى اشتركوا بها.

عشراوى ولدت فى رام الله، فلسطين، وهى الأصغر من خمسة بنات لطبيب فلسطينى وقائد سياسى مسيحى. درست فى المدارس المسيحية وفى الجامعة الأمريكية فى بيروت، لبنان، قبل حصولها على الدكتوراة من جامعة فرجينيا فى الولايات المتحدة. هى وزوجها وهو مصور محترف وموسيقار، اختارا العيش فى الضفة الغربية المحتلّة، حيث أصبحت أستاذة جامعية فى جامعة بير زيت.

عشراوى انضمت لفتح وقد اختيرت كعضو فى مفاوضات الشرق الأوسط. حضرت محادثات السلام خلال الجلسة الافتتاحية فى مدريد حتى الخاتمة الناجحة فى ديسمبر ١٩٩٣، عندما استقالت لترأس البعثة الفلسطينية لمنظمة التحرير فى واشنطن. عند بدأ الانسحابات الإسرائيلية، عادت إلى مسئولياتها فى جامعة بير زيت، حيث ترأست اللجنة المستقلة الفلسطينية للدفاع عن الحقوق المدنية. فى يناير ١٩٩٦ اختيرت لمقعد فى المجلس الفلسطينى تمثّل القدس الشرقية).

– أيضا انظر على سبيل المثال :

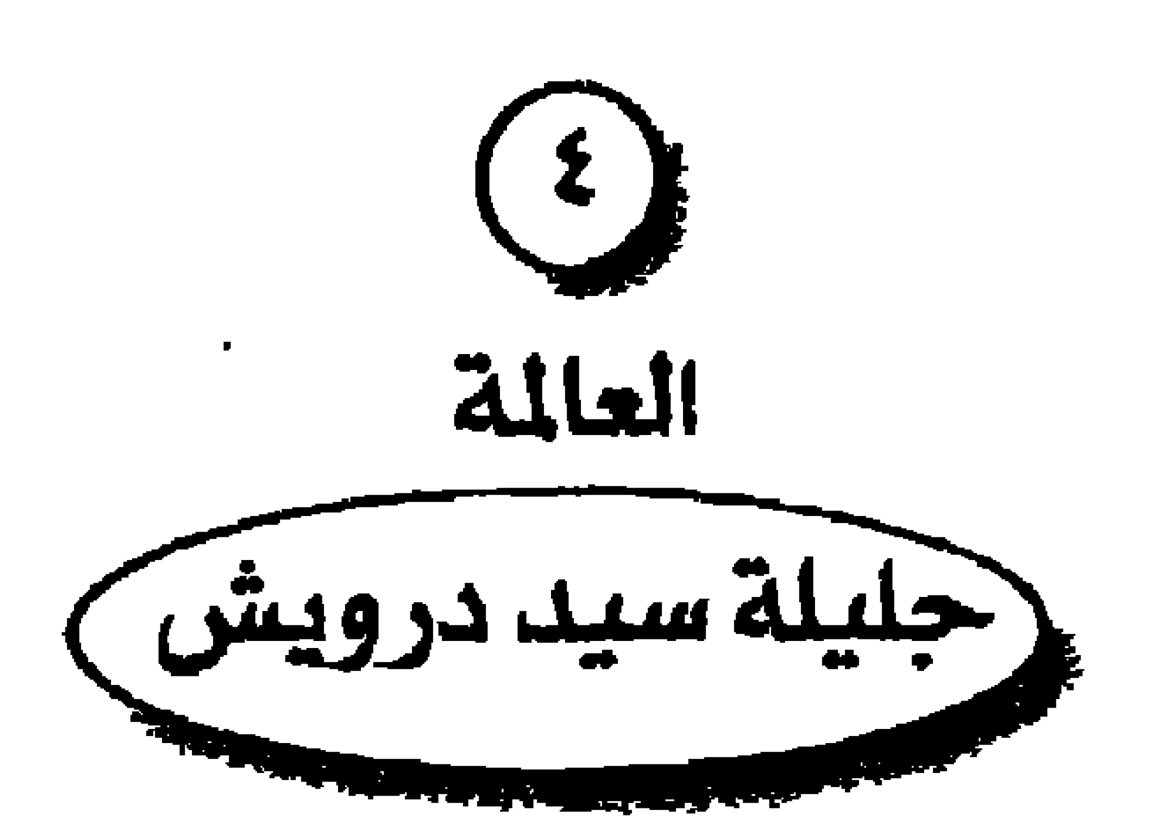
- http://ar.wikipedia.org/wiki
- http://www.arabguide.eu/htm

://www.arabguide.eu/htm/agnews30.html

Hdqh hk/v hgn p

– أيضا انظر إلى تصريحات مهمة لها فى :

- http://www.palpress.ps/arabic
- http://www.mahjoob.com



في الفترة الأولى من حياة سيد درويش قصة حب تعرف خلالها على امرأة أسلمته إلى الحيرة طويلا، قبل أن يعود للناس والجماهير الشعبية بجميع طبقاتها..

من هذه المرأة التي – من أجلها – راح يغني، وكأنه يَنُوْح:

ضيعت مستقبل حياتي في هواك ؟

من هذه العالمة التي ظلت تطارده حتى بلغ درجة اليأس فراح يغني فيما يشبه الصياح:

أنا هويت وانتهيت ! !

فلاش باك :

تقول حياة سيد درويش الفنان المصري الأصيل: إنه في أحد أفراح الإسكندرية، وقد كان هو مدعوًا ليغني تعرف على (عالمة) اسمها جليلة..

ويقول لنا الذين عرفوا سـيد عن قرب إن جليلة هذه، كانت من أجمل نسـاء الإسكندرية في وقتها، وكانت تتميز عن غيرها من نساء هذه الفئة التي تتمايل وترقص في الأفراح، بأنها كانت ضخمة الجثة، فارهة الطول، جميلة جمالا لا يوصف..

ويقول لنا شـاهدو هذا العصر إن جليلة هذه كانت امرأة لعوبا، ومن هنا، فإنه ما كاد الفنان يتعرف عليها، وما كادت تتجاوب معه قليلا، حتى عادت – شأن الغانيات دائمًا – تصده..

وكان هـذا الصَّـدّ منها يعود إلى غناء حياتها بالرجال والأفراح؛ بحيث إنه كان يصعب عليها الارتباط بسيد درويش وحده، وقد تعذب الفنان كثيرًا في هذا الوقت، والذين حضروا حفلاته في الفترة المبكرة من حياته كانوا يستمعون إلى هذه الأغنية التي راح يصنع كلماتها من ذوب عشقه، ويرفع ألحانها من عذب حنينه :

يا للي قوامك يعجبني
ليه بس ترضالي صدودك
يا هل ترى بتأدبني
أكمني عُذّالي شهودك

أروح لمين أشكى حبيبى
والدهر والعزّال حكام .

الهانم :

وكلمــا زادت العالمــة هجرانه زاد شــوقه، وهيامه، ومــن هنا، فإنه راح فــى غيبوبة الهوى المستحيل يحيا طويلا، على أن الملاحظ لأغانيه في هذا الوقت يلاحظ أن سيد درويش لم يكن من طراز هذا العاشق المستعطف الباكى دائمًا، فهو يحمل لوعة الفنان لكنه أيضًا يحمل بذرة تمرده، ومن هنا، فهو فى عنائه لها لم يكن مستعطفًا فقط، وإنما كان غاضبًا إلى درجة السخرية، عاتبًا إلى درجة التلويح بالأيدى والكلمات اللاذعة.

ومثل كل فنان متطرف، فإنه كان حينا يتحدث بأســلوب هادئ كله ســخرية، وفى أحيان كثيرة كان غضبه يصل إلى أقصاه «فيردح» فى كلمات غاية فى الهجوم والغضب الشديدين..

إنه يعانى من هجر العالمة له، وغيابها عنه، وهو يعانى من صدها له ومغالبتها لحاله، فراح يعبر عن هذا بسخرية ممضة:

ما تطلعيش فيها يا هانم
كلها يومين وتعدى
ويترك مساحة صوتية فى هذه الطقطوقة ليعلو صوته من جديد
إنت السبب وحياة ربى
فى أصل تعذيبى وحبى
اصبر على الهجر يا قلبى
دى كلها يومين. وتعدى
....
عذابى لو كان يهنا لك
شيء مش غريب وحياة خالك
أد لدنيا مش دايمالك
دى كلها يومين.. وتعدى

وإذا كان الهجر يولد لديه اللوعة ويستثير فيه شجون الفنان وأحزانه، وإذا كان صد الحبيب يشــعل فــى قلبه ثورة الحب الأبدية، فإن الخيانة تحيل كل شــيء فــى حياة الفنان إلى غضب محترق، إنه علم أن جليلة هجرته لكى تتعرف على جواهرجى اســتطاع أن يغمرها بماله وثرائه إلى الدرجة التى نسيت معها هذا الفنان الرقيق..

وهنا وصل غضب سيد درويش إلى أقصاه، وخاصة أن العالمة لم تكتف بهجره فقط، وإنما راحت كل صباح تتهادى أمامه في «المرواح والمجي» وهي ترتدي في قدميها خلخالاً من الذهب أهداه إليها الجواهرجي، وهذه الفترة أنجبت لنا أكثر الكلمات سخرية في الأغنية الشعبية على مر العصور، لقد راح يهدهد أحزانه بكلمات لا يبدو فيها اليأس بقدر ما يبدو رنة التحدى..

الأكثر من هذا، أنه راح يضيف إلى الغضب والحزن إحساسًا بالتصدى لهذه الحبيبة الخائنة، وراح يصف لنا، في كثير من العبقرية العفوية، مسرح الأحداث التي دارت فيها هذه القصة، وسوف نحاول هنا أن ننقل كلمات هذه الطقطوقة التي كتب كلماتها، ثم راح يلحن ألحانها، حتى أصبحت على كل لسان بعد أن أصقلها..

تقول هذه الطقطوقة التي تشبه وصلة من الانتقام من هذه العالمة ومن الجواهرجي صاغها في كلمات:

في الصاغة الصغيرة
شوف سوق العجايب
..
على الشمال أول دكان
صاحبه جدع اسمه القطان
عنده حلق خفة وكردان
وادى الحقيقة بتنكتب
تاني دكان سيبك منه
والثالث اللي باقول عنه
تاجر شهير ولا فيش منه
ولكل شيء دائمًا سبب
رابع دكان سلم لى عليه
دانا قلبي ما يملش إلا ليه
والخامس اللي اقبل ايديه
دا يساوى طب كيل ذهب
أما بقى ساتت دكان
استنى عنده يا أبو القصان
تلقى اللي فيه قاضى النسوان

عمر اللى زيه ما ينعتب

..

.. أم ركب

بيقولوا مرة عمل خلخال

ينفع ركاب لتلاته بغال

سألته مين لبسته يا عيال

قالوا جليلة أم ركب

هل لاحظنا نبرة السـخرية العاليـة، والهجاء الحاد للجواهرجـى، وقبل ذلك، هل لاحظنا الهجـوم الحاد على الحبيبة الشـاردة، التى أبت إلا التعـرف على الجواهرجى، الغنى، تاركة الفنان، الفقير..

يقول ابن سيد درويش تعليقًا على هذه الأغنية:

(ـ خلخـال.. ينفع ركاب لثلاثة بغـال..!! إنه حقًا لخلخال غريب عجيب فى ضخامته.. كم يساوى ثقله فى ميزان الذهب..؟!! وكم يكون ثمنه فى ميزان المال..؟! لم يغن سيد درويش هذه الأغنية وحده بل لقنها لجميع عوالم الإسكندرية فأصبح الأطفال يغنونها وكانوا يمرون أمام الدكان.. (الصائغ) لإسماعه هذا المقطع كل يوم ليلا ونهارًا حتى ضاق الرجل ذرعًا وترك الميدان لمنافسه.. وهكذا انتقمت الموسيقى للفنان المطعون فى كرامته)

اطلع من دول..

وعلى هذا النحو، وجدت العالمة نفسـها فى أفواه الجميـع، كبارًا وصغارًا، فى وقت غضب منها الجواهرجى، فلم تجد غير العودة إلى الفنان لعلها تؤثر فيه، وتخدعه، فيرجع عن السخرية و (الفضيحة) لها..

تشـير المصادر إلى أن سيد درويش ذات مسـاء فوجئ بالعالمة تعود إليه، غاضبة، مبدية الندم، دائمة البكاء، تقسم أشد الأيمانات بأنها خدعت فى الجواهرجى، وها هى ذى تعود إليه ثانية..

لم يكن سيد درويش غِرًّا حتى يخدع..

لقـد حمل عوده وتركهـا وحدها دون كلمة عتاب.. أو هجاء وجلـس فى حجرته الفقيرة فى جزيرة بدران، وراح يدندن بكلمات جديدة من طقطوقة (سيكاه) يبث فيها أشواقه، يقول:

اطلع من دول أنا مش منهم

ياللا اسرح دور على غيرى

وتتعطل الأوتار قليلا، ثم يواصل فى نغمة طويلة:

ما يغركش ضحكى ولعبى
دى أمور نسوان وحياة ربى
أحسن لك تسرح ع الشاطبى
وفضك منى ومن غيرى

ويصل فى السخرية إلى درجة قصوى:

بدك تعرف اسأل بابا
وإن كنت حويط مش على بابا
أحسن لك تسرح بربابا
وفضك منى ومن غيرى

وفــى محاولة للهــروب من هذا الجو الذى كانت جليلة فيه تأتى مرة مســتغفرة وتبعد مرات غاضبــة، كان عليــه أن يفكر فى طريقة يهرب فيها من هــذا العالم الذى يظل يقذف به من قاع اليأس إلى قمة الأمل، ثم يعود به مرة أخرى إلى قاع اليأس وهكذا..

عودة المجد:

وقد تصادف فى هذا الجو أن كان صيت سيد درويش قد بلغ إلى مداه فى الإسكندرية، ووجد الكثير من الأصدقاء والفنانين يحثونه للذهاب إلى القاهرة حيث يقدر فنه أكثر فى العاصمة..

وبالفعل، فإن سيد درويش لم يجد مناصًا من الهروب إلى القاهرة للفرار - فى المقام الأول - من جليلة، وربما - وهذا يأتى فى المقام الثانى - يستطيع هناك، فى العاصمة، العثور على فرصته الأكيدة فى الغناء والوصول فيه إلى مكانة عالية..

ورواد مقهى البوســفور فى ذلك الوقت كان من الســهل عليهم أن يجدوا امرأة ضخمة الجثة تجلس فى الصفوف الأولى أمام المغنى الوافد من الإســكندرية - سيد درويش - وكانت تظهر فى كل حفلــة فــى هذا المقهى، حتــى إذا ما انتهى الفنان من الدور الــذى يؤديه أو الطقطوقة التى يذوب فيها حتى يجد نفسه وجهًا لوجه أمام العالمة، فيتجاهل ويحمل عوده، ويمضى مع كوكبة كبيرة من معجبيه.

ضيعت مستقبل حياتى:

وتكتشف العالمة بحس الأنثى أن الإقبال على الشاب الفنان والتردد عليه وعلى حفلاته يوميًا ســوف يزيد من صدوده، ومن هنا، بدأت هى - علــى الجانب الآخر - وصلات اللوم والعتاب

المشــوب بالبكاء الطويل قبل أن تختفى لفترة من حياته، فى حين ظل من حوله، ومن (عذاله) بوجه خاص لا يتركونه فى حاله، ومن هنا، تحول الفنان، فى غياب جليلة، إلى النقيض..

وبعد أن كان يردد طقطوقة يقول فى آخرها (.. يا خى فضك منى ومن غيرى)، راح يغنى دورًا جديدًا، تصل الجدة فيه إلى درجة لم يسبقه إليه أحد، وهو دور شهير سجلته شركة (بيضافون) فيما بعد بصوت سيد درويش، وهو دور (ضيعت مستقبل حياتى) الشهير، يقول فيه:

ضيعت مسـتقبل حياتى فى هـواك

وازداد علــى اللـــوم وكتـر البغـددة

حتـى العــوازل قصدهم دايمًا جفاك

وأنا ضعيف ما اقدرش أحمل كل ده

أن جفاك يرضى علاك

أنا فى حماك عفو الحبيب

ما يكونش أحسن من كده

وينتهى المذهب ويبدأ الدور الذى يصل إلى أقصى نقطة فى ذاكرته المتعبة الحزينة، ونسـتمع لصوت سيد درويش نفسه:

علمتنـى يـا نـور عيـونى الامتثال

واحتار دليلى بين تيهك والجـوى

كنـت افتكـر حبـك يزودنى كمال

خيبت ظنى والهوى ما جاش سوا

تبقى سبب   كل التعب

وتزيد غضب   واللى انكتب

فوق الجبين ما لوش دوا

على أن ســيد درويش الفنان الحزين يصل غضبه على نفســه إلى درجة أنه يخرج من أحزانه الغضة، ويرحل عن عالم المستقبل الضائع إلى عالم آخر لا يمت إلى الفنان عميق الحس فى شىء، فهو يغادر الدور الرزين إلى طقطوقة أخرى أشبه (بالردح) الذى يذكرنا بحوارى الإسكندرية وأبناء البحر الذين يقابلون الغضب بالتحول – فى التعبير عنه – إلى الوجه المناقض، إلى (الغيظ) الذى يصيب عدوهم فى مقتل، إن أسلوب (الردح) هذا يعبر عنه فى طقطوقة يقول فيها:

فلفل

اهرى يا مهرى   وأنا على مهلى أكيد واتفرج

على دى الفلفل

ان كان

طول الهجر

يكيدك   أنا راح اكتّر منه وازيدك

وان كان شيء

ممكن وبإيدك ياللا نتفرج على دى الفلفل

..

كام مرة أقول ما انتش قدى   ولا يمكنك تحمل صدى

فلفلت قوام

من دى ومن دى

خليك تتدرج على دى الفلفل

على أن هذا الأسـلوب، الذى لا يتماشى مع إحساس فنان رقيق، يفسر، بأن سيد درويش - مثل كل فنان - يحوى فى داخله قدرًا كبيرًا من التمرد (الذى يسمى أحيانًا فى خبرات التحليل النفسـى بالتطرف)، وهذا التمرد - الذى نجده فى دخيلة معظم الفنانين - يصل بصاحبه بين النقيضـين، فتارة هو معتدل رزين، وتارة أخرى هو غاضب عنيف، وفى الحالين، يحمل الفنان قلبًا عطوفًا طيبًا، وهو ما يفسر به كيف يتأرجح من آن لآخر بين الطرفين.

ويدل على هذا أنه بعد طقطوقة (الردح) هذه، صفت مشاعره، وعاد إليه حنينه القديم، وراح يستعيد ما كان مسيطرًا عليه؛ من إحساس طاغ بالكبرياء الذى يدفع دفعًا إلى إيثار كرامته، وفى النهاية.

.. وانتهيت

وعلى هذا النحو، فإن المؤلفات الموسيقية تسجل لنا كلمات دور جديد، ربما كان من بين أهم أدوار سـيد درويش التى سـوف تخلده، وهو الدور الذى ورد فى مذكراته (كما أوردها ابنه حسن فـى كتابـه الهام (من أجل أبى..) فى بيان (دور حجاز كاركرد)، وهذا الدور تأتى مقدماته على هذا النحو:

أنا هويت وانتهيت

وليه بقى لوم العزول

يحب أنى اقول يا ريت

الحب ده عنى يزول

..

أنا وحبيبى فى الغرام

ونتوقف عن إكمال الدور ذلك لأن قراء هذه السطور يعرفون البقية لفرط عذوبتها ورقتها بصوت سيد درويش نفسه..

على أن الذى يهمنا هنا، هو، أن العالمة التى حركت كثيرًا من ماء البركة الراكض كان يمكن أن تحول هذا الماء إلى شرار يصيب صاحبه، غير أن الفنان العاشق استطاع أن يدرك أنه لن يكون ضحية علاقة هوجاء، الطرف الآخر فيها لا يعرف للهوى العفيف معنًى صادقًا.

ومن هنا، فإنه ما كاد يستقر فى القاهرة لفترة، ويتنقل بين الهوى والغضب وبين وصلات الغرام ووصلات (القلقل المهرى)، حتى أدرك فى نهاية الأمر، أن المحتم هو أن ينتصر الفنان الذى كانت تنتظره مصر كلها.

كان على الفنان القادم من الثغر – سيد درويش – أن يدرك أن مصر فى السنوات القليلة التى تسبق ثورة ١٩١٩ مقبلة على ثورة دون شك، فراح يعمل فى أكثر من مسرح، ويتنقل فى أكثر من فرقة، وهو فى كل مرة يقترب أكثر من مشاعر الناس، حتى استطاع أن يلعب دوره الكبير فى ثورة ١٩١٩.

ويستطيع الكاتب أن يخصص مؤلفًا متفردًا للحديث عن دور سيد درويش فى ثورة ١٩١٩، لكننا نكتفى هنا (رغمًا عنا) بالإشارة إلى إحدى المقطوعات التى راح يغنيها سيد درويش فى ذلك الوقت بعنوان (بنات اليوم)، وعلى رغم أن هؤلاء البنات اللائى يغنى لهن سيد درويش بيننا وبينهن الآن قرابة سبعين عامًا، فإن الذى يسمع كلمات الأغنية يدرك – كما أدرك د. الحفنى – أن موضع الغرابة التى نحس بها حين نستمع إلى هذه الأغنية يعود إلى «سبقها لأوانها وتعبيرها عن حياة بنات يومنا الحاضر الذى نعيش فيه لا بنات اليوم الذى يعنيه» فى هذه السنوات البعيدة فى أوائل القرن العشرين.

وعلى رغم أن هذه الأغنية من تأليف أمين صدقى، فإن غناءها على لسان سيد درويش – من مسرحية قام بتلحينها – أضفى عليها معنًى عميقًا، ولا نستطيع إغراء نقل مقطوعة كبيرة من (بنات اليوم) لنؤكد بها على دور الفنان حينئذ.

تقول مقدمة أغنية (بنات اليوم):

دا وقتك دا يومك يا بنت اليوم

قومى اصحى من نومك يزيـــاداك نـــــوم
وطـــالبى بحقوقــك واخلصى مــن اللــوم

ليه ما نكونشى زى الغربية ونجاهد فى حياتنا بحرية

معانا شهادات ودبلومات
ونعرف بولتيكة بالسبع لغات
ليه ما نكونشى يا بيه زى الراجل ليه
قول لنا هو زائد عنا إيه

ويواصل عقب كل مذهب سؤاله الحائر:

مين فى دردحتنا وخفتنا مين

وقد كان التفات سـيد درويش إلى القضايا الهامة التى تفرض نفسـها عليه مؤشرًا على الوعى الذى وصل إليه، فقد أدرك أنه بالدخول إلى عالم الناس، والاقتراب من قضاياهم يكون قد اقتنع بأن هجر (العالمة) أصبح واجبًا عليه..

وبهذا، يكون سيد درويش قد أدرك أنه وصل إلى طريق المجد وفى اليوم الذى استطاع الفنان أنْ يتغلب فيه على نفسه، ويترك هواه إلى الواجب الذى ينتظره، راح يميل على عوده، وجلس صامتًا لبرهة ليعلو صوته قائلاً:

يوم تركت الحب كان لى
فى مجال الأنس جانب
ورأيت المجد عاد لى
بعد ما كان عنى غايب
مين يصدق بعد ميلى
أنى أقول الهجر واجب

وقد صدقناه جميعًا، وما زلنا نصدقه، فسيد درويش كان أنبغ من أنجبته مصر فنيًا فى النصف الأول من هذا القرن حتى الآن..

هل يجرؤ أحد ويقول إن سيد درويش مات، أو ضاع مستقبله؟!

هل يجرؤ أحد..؟!

أهم المراجع

- يمكن العود لتفاصيل لقاء سيد دريش وجليلة فى بعض المواقع منها:

- http://www.mahjoob.com
- http://jarelkamar.manalaa.net/Sayed_Darwish

- تقول العديد من المراجع أن سيد درويش حين أحس بالحالة التى عاش فيها بمجرد أن عرف العالمة - جليلة، فدفعه الحال إلى ترك الإسكندرية كى لاتحدث له هذه الأزمات فى الحياة الاجتماعية وقبلها فى الحياة الفنية، على سبيل المثال انظر :

- http://jarelkamar.manalaa.net/Sayed_Darwish



لا يهمنا اسمها، أو تاريخها الطويل، ولكن ما يهمنا دورها، كامرأة واعية قوية، استطاعت أن تلعب دورًا حيويًّا فى نقل التكنولوجيا المتقدمة إلى بلادها.. وبعد هذا وقبله نضالها ضد الطغيان الذى دفعت من أجله حياتها بكل إصرار..

امرأة، كانت وراء تطوير مشروع القنبلة النووية الإسلامية..

وامرأة كانت ضد الطغيان والتبعية فى بلادها

ومع ذلك، وقبل أن نصل إلى تفاصيل هذا الدور، لابد من الإشارة بسرعة إلى حياتها لنرى كيف استطاعت بنازير بوتو الوصول إلى هذا الوعى عبر عدة محطات عانت خلالها الكثير، قبل أن تستأنف السير فى الطريق مرة أخرى..

ابنة الشرق

– هى بنازير ابنة المناضل الإسلامى الكبير ذو الفقار على بوتو شهدت حكم أبيها لسنوات طويلة، كما شهدت انقلاب أودى به، فشهدت أبيها على حبل المشنقة، ونفذ فيه حكم الإعدام..

ولم تتراجع عن العمل للديموقراطية من جديد خلال الأحزاب..

– رفضت الانصياع للحكومة المضادة، فخاضت غمار السياسة وتعرضت للاعتقال واغتيال شقيقها، فتزعمت حزب أبيها (حزب الشعب) حتى اكتسح حزبها – أثناء الانتخابات – الأحزاب الأخرى وتولت رئاسة الوزراء.

– ومنذ اللحظة الأولى برهنت على إيثارها للحياة الديموقراطية أكثر من السعى للانتقام، فدخلت فى ائتلاف مع القوى السياسية الأخرى حتى تضمن تحقيق الديموقراطية..

– حاولت رئيسة الوزراء أن تكون (ابنة الشرق) وهو عنوان كتاب لها، فحكمت فى نزاهة، وحققت الكثير لبلادها، حتى تم عزلها فجأة بواسطة رئيس البلاد ونفيها بعد ذلك قبل أن تعود فى إصرار لتناصر الحق، ودفعت ثمنا لهذا باغتيالها..

لقد عزلت دون مبررات كافية.

وهنا، نقترب أكثر من أحد المواقف التى ميزت هذه السيدة.

وهـى مواقـف تصب فى نهاية الأمر فى وعيها الحاد بالمرحلة التى يمر بها العالم الإسـلامى – فى مواجهة العالم الغربى – عقب الغزو العراقى للكويت..

وراء الاتهام:

كان من السـهل على خصومها أن يوجهوا إليها اتهام اسـتغلال عائلة زوجها لنفوذها، غير أن هذا السـبب كان فى الظاهر فقط، أما السـبب الحقيقى، فكان محاصرة وإسـقاط هذه السيدة التى كان هدفها الرئيسـى إدخال تكنولوجيا متقدمة جدًّا لبلادها لإنتاج سلاح نووى تستطيع به مواجهة القوى التى تتربص بها..

وقـد ظـل أعداؤها يكيلون لهـا التهم، وينصبون لها المحاكمة، لكنهـا – فى نهاية الأمر – اسـتطاعت أن تخرج من كل ذلك بدون إدانة، وتخوض معاركها الديموقراطية، وتواصل سعيها لإدخال التكنولوجيا العسكرية المعاصرة..

وقـد عانـت بنازير بوتو من هذه المضايقات لسـنوات طويلة، ولم يتـورع أعداؤها عن اعتقال زوجها، واعتقال أنصارها، والاتهامات المسـتمرة التى وجهت لها، غير أنها لم تتردد فى لعب أدوار كثيرة فى تاريخ باكستان..

إن هذه المرأة الواعية ولدت عام ١٩٥٣ فى مدينة كراتشـى بباكسـتان لعائلة سياسية شهيرة حيث كان والدها رئيسا لدولة باكستان ثم رئيسا للوزراء فى السبعينات من القرن الماضى.

درست بنازير العلوم السياسية والاقتصاد فى جامعتى هارفارد وأكسفورد.

تزوجت بنازير عام ١٩٨٧ من رجل الأعمال وعضو البرلمان آصف على زاردارى وأنجبت منه ثلاثة من الأبناء.

تأثرت بنازير بوالدها ذو الفقار على بوتو وبالحياة الغربية التى عاشت فيها سنوات طويلة من عمرهـا وأفردت ذلك على صفحات الكتاب الذى ألفتـه عام ١٩٨٩ عن حياتها الخاصة والعامة وأسمته «ابنة القدر».

وعلى أى حال إنها كانت تعد نفسها داعية من دعاة الديمقراطية وحقوق الإنسان.

وتؤمـن بدور فعال لمؤسسـات المجتمع المدنى وعلى رأسـها البرلمان وتدعو إلى إطلاق سـراح المعتقلين السياسيين وإصدار عفو عام عنهم.

وتظهر عدم تحمسها لبعض التيارات السياسية داخل المجتمع الباكستانى وبخاصة تلك التى لها توجهات إسلامية ومؤيدة لحركة طالبان.

كذلك أنكرت بوتو التوسع الذى كان سائدا قبل مجيء الرئيس برويز مشرف في إنشاء المدارس الدينية واعتبرتها محاضن تساعد على انتشار الإرهاب.

غـير أن هــذا كله تعارض مع القوى الامبريالية فى المنطقة، وهو ما وصل بها وبنا إلى ارتفاع درجة الصدام مع القوى الامبريالية، وهو ما تفعل كل ماتريد من إرهاب وتدمير وأيضا اغتيال..

وهو ما دفعت إليه الولايات الأمريكية.. والغريب أنه أيدت الحكومة الحالية فى تحالفها مع الولايات المتحدة فيما يسمى بحرب الإرهاب.

وسنعيد المشهد السابق فى إشارات أخرى..

عادت بنازير إلى باكســتان عام ١٩٧٧ قبيل الانقــلاب الذى قاده الجنرال ضياء الحق والذى انتهــى بإلقــاء القبض على والدها ثم إعدامه عام ١٩٧٩. وبقيت بنازير تحت الإقامة الجبرية إلى أن اســتطاعت الخروج من باكســتان ولم تعد إليها مرة أخرى إلا بعد ثلاثة أشــهر من وفاة ضياء الحق فى حادث طائرة عام ١٩٨٨.

وتقول لنا بطاقة الميلاد بعد ذلك أن بنازير بوتو أصرت على العودة إلى باكستان...

وتتوالى الإشارات :

شــجعت وفاة ضياء الحق بنازير على التفكير في العودة مرة أخرى بعد عشــر سنوات قضتها فى المنفى وبالفعل بعد ثلاثة أشــهر من غياب ضياء الحق عن الســاحة الباكستانية عادت لتتولى قيادة حزب الشعب الباكستانى الذى كان قد أسسه والدها عام ١٩٦٧.

وفى ذلك العام (١٩٨٨) فاز تحالف بوتو بأغلبية قليلة فى الانتخابات البرلمانية التى أجريت آنذاك مما مكنها من تولى منصب رئيســة الوزراء وكان عمرها وقتئذ ٣٥ عاما لتصبح أول وأصغر رئيسة وزراء دولة إسلامية.

واجهت حكومة بنازير العديد من المشاكل أهمها المشكلات الاقتصادية التى لم تستطع التعامل معها بفاعلية مما ألب عليها خصومها السياسيين الذين رفعوا عليها وعلى زوجها آصف زاردارى العديد من قضايا الفساد وسوء استعمال السلطة.

دخلت البلاد فيما يشــبه الفوضى السياســية ازداد معها احتقان الحياة السياسية الأمر الذى دفع الرئيس الباكستانى غلام إسحق خان إلى إسقاط حكومتها فى أغسطس١٩٩٠.

وفــى غضون ذلك حكم على زوجها الذى كان يشــغل منصب وزير الاســتثمارات الخارجية بالسجن ثلاث سنوات (١٩٩٠ – ١٩٩٣) على خلفية اتهامات سابقة بالفساد.

اســتطاعت بنازير بعد ثلاث سنوات العودة إلى رئاسة الوزراء بعد فوزها فى الانتخابات التى أجريت فى أكتوبر ١٩٩٣ لكنَّ بقاؤها لم يدم طويلا ففى عام ١٩٩٦ أصدر الرئيس فاروق ليغارى

والـذى كان حليفا لها فى السـايق قرارا بإسـقاط حكومتها للمرة الثانيـة عام ١٩٩٦ بعد تجدد الاتهامات لزوجها بالرشـوة والفسـاد والدخول فى علاقات اقتصادية مشبوهة للدرجة التى بات يعرف بها فى الأوسـاط الاقتصادية الباكستانية بـ «السيد ١٠ ٪» تلميحا إلى نسبة الـ ١٠٪ التى كان يتقاضاها على معظم الصفقات التجارية التى تجريها الحكومة.

وكان لابد أن تعود من المنفى.. لابد..

وبنازير بوتو عاشت فى المنفى متنقلة بين بريطانيا والإمارات العربية المتحدة فى انتظار الفرصة التى تمكنها من العودة إلى الحياة السياسية الباكستانية لتستعيد بعضا من نشاطها القديم.

قضت بنازير ثمانية أعوام فى منفاها ثم عادت إلى باكستان فى إثر عفو عام صادر عن الرئيس الباكستانى برويز مشرف.

وكان وراء الاتهامات أسباب معروفة من السلطة المضادة لها.

كان من السـهل على خصومها أن يوجهوا إليها اتهام اسـتغلال عائلة زوجها لنفوذها، غير أن هذا السـبب كان فى الظاهر فقط، أما السـبب الحقيقى، فكان محاصرة وإسـقاط هذه السيدة التى كان هدفها الرئيسـى إدخال تكنولوجيا متقدمة جدًا لبلادها لإنتاج سلاح نووى تستطيع به مواجهة القوى التى تتربص بها..

وقـد ظـل أعداؤها يكيلون لهـا التهم، وينصبون لها المحاكمة، لكنهـا – فى نهاية الأمر – اسـتطاعت أن تخرج من كل ذلك بدون إدانة، وتخوض معاركها الديموقراطية، وتواصل سعيها لإدخال التكنولوجيا العسكرية المعاصرة..

عانت بنازير بوتو من هذه المضايقات لسنوات طويلة، ولم يتورع أعداؤها عن اعتقال زوجها، واعتقال أنصارها، والاتهامات المستمرة التى وجهت لها، غير أنها لم تتردد فى لعب أدوار كثيرة فى تاريخ باكستان..

وخلال ذلك، تعرضت هذه السـيدة لمحاولات اغتيال حتى تتراجع دون جدوى.. مرة أخرى تحديها للقوى الغربية التى تحول بينها وبين لعب الدور الكبير لها..

كان اسهاماتها النضالية تتوزع فى أكثر من طريق..

وكان أهم هذه الأدوار قاطبة، هو، إسهامها فى تطوير مشروع للتكنولوجيا النووية ..

وهو ما نتمهل عنده دون أن نغفل دورها ضد الطغيان الخارجى والداخلى.

وهنا، نصل، إلى السبب الذى أسقطت بنازير بوتو من أجله..

قنبلة بنازير :

تعددت الأسباب المعلنة وراء إقالة بنازير بوتو..

غير أن السـبب الخفـي كان هو تخوف الولايات المتحدة الأمريكية مـن تطور القدرة النووية لإسـلام أباد (عاصمة باكستـان)، ومن هنا، توالت ردود الأفعال ضـد بنازير التي كانت رئيس الوزراء في هذا الوقت:

- فـي الكونجـرس الأمريكي، وبالتحديد في اللوبي الصهيوني به، تبدى تخوفًا شـديدًا من قنبلة باكستان الإسلامية..

وتوالت التقارير السرية والمعلنة من داخل اللجنة الصهيونية..

- وفـي عديد من مؤتمـرات وزارة الدفاع الأمريكية، أعلن، خلال مؤتمرات عقدت خصيصًا، عن التخوف من امتلاك باكستان لقنبلة نووية إسلامية.

- وخصصت مسـاحات شاسـعة من الصحف الغربية للتحذير من مشروع باكستان، والدعوة لإجراء إجراءات حادة ضدها..

وقد حرصت بنازير بوتو، منذ اكتشـفت هذا المشـروع، منذ توليها الحكم، على رعايته سرًا، ولم تعلن عنه ولو مرة واحدة بشكل صريح..

لقد قالت أكثر من مرة أفكارًا واحدة تنوعت معها طرق التعبير، لكنها، لم تخرج قط عن هذا التصريح:

(إن باكسـتان، تملك الخبرات الكافية للردع «النووي» السـريع في حالة نشوء تهديد يقتضي ذلك.. وإن البلاد ليست في حاجة إلى تطور قدراتها النووية..)

لم تعترف رئيسة الوزراء بتطور مشروع لإنشاء قنبلة، وإن اعترفت صراحة بالخبراء والإمكانيات، والقدرة، وما إلى ذلك..

وحين كانت تواجه دائمًا بالسؤال المباشر.

- ولماذا لا تسعى البلاد إلى صنع القنبلة النووية؟

كانت تجيب في وضوح شديد:

(- لأن ذلك يؤدي بها إلى عزلة دولية؟

وهنا يُطرح سؤال آخر.

وإذا كان تخوف باكستان من العزلة يظهر الآن، فلماذا لا يظهر إلا الآن فقط؟

ولماذا لم يعلن عنه من قبل بمثل هذا الوضوح؟

والإجابـة ببسـاطة: لأن الولايات المتحدة لم تكن تمانع مـن قبل في ذلك، لكنها، أصبحت تمانع الآن بشكل لم يسبق له مثيل..

الولايات المتحدة ترفض تطور قوات نووية أو صنع قنبلة (باكسـتانية) بوجه خاص. ونقترب أكثر من فهم هذا الموقف..

إذ يبــدو أن هناك علاقة وثيقة بين موقف الولايات المتحدة الأمريكية الآن وبين موقف بنازير بوتو من العراق أثناء غزوها للكويت..

ويتأكــد هذا حين تم عزل رئيســة الوزراء، فــإن ذلك، تم فى هذه الفترة التــى ترتبط بالغزو العراقى للكويت..

ولفهم ذلك أكثر، نتوقف أمام عدة محطات، نواصل بعدها الطريق..

لنحاول..

المحطة الأولى:

يقــترب بنــا ذلك كله من جهود بنازير بوتو الدءوبة، من تملك الأدوات النووية وتطورها، فى وقت شهدت العلاقات الدولية تقاربًا بين باكستان والعراق، إلى درجة زيارة رئيسة الوزراء للعراق فى هذه الفترة..

وهو ما يؤكد التعاون فى المجال النووى بينهما..

لقد كان حرص الولايات المتحدة شــديدًا فى ألا تمتلك العراق أدواتٍ نووية، وألا تحرز تقدمًا فى هذا المجال، وخاصة، أنه أثيرت حينئذ ضجة كبيرة (مرســومة ســلفًا بالقطع) حول امتلاك العراق (القطر الإسلامى) لقنبلة نووية بدائية أو صواريخ نووية تحمل رؤوسًا نووية أو – حتى – لأية كمية من اليورانيوم المخصب أو أى عدد من برامج التدريب لصنع مثل هذه القنبلة.. وما إلى ذلك من الأسباب التى تراكمت لتسعى فيها العناصر الشريرة إلى اغتيالها...

وزاد من ذلك، أن الدوائر الصهيونية وراء افتعال ضجة كبيرة ضد العراق (ومن ثم باكســتان) داخل الكونجرس وخارجه، لاسيما أثناء فترة الغزو الأولى.

ولأن الكونجرس كان تابعًا لإسرائيل سواء بالوجود الصهيونى الفعال أم بالضغوط المالية، فقد ألقى الضوء وثيقًا بين بنازير بوتو وبرنامج بغداد الطموح لامتلاك القنبلة (الإسلامية).

وهنا بدا وجود بنازير فى السلطة خطيرًا..

وكان البديل الوحيد للخلاص منها هو إقالتها

وتم ذلك، بالفعل، فى جو غامض، أعلنت فيه تهم وهمية لبنازير قبل إقالتها.. كان السبب الوحيد، الخفى، هو اقتراب هذه السيدة من المنطقة الخطرة، التعاون مع العراق، فى وقت، تعيد فيه الولايات المتحدة الأمريكية نظرتها إلى العالم، وتعيد خيوط نظام عالمى (أمريكى) جديد..

لكــن، هل كان ذلك كافيًا للعمل على التخلص من رئيســة الوزراء.. إمــا إلى إقالتها وإما إلى اغتيالها..

وتتعدد الأسباب، وتتحد،

وهو ما يصل بنا إلى المحطة الأخرى..

المحطة الأخرى:

هـذه المحطة تتصل من ناحية بالحرب العراقية، ومن ناحية أخرى، بظروف العالم البعيد، حيـث انتهت الحرب البـاردة الآن، وتهيأت الدولة الكبرى (أمريـكا) لتأمين المجال الحيوى للسيطرة على العالم كله..

وهـذا العامل - انتهاء النظام الجيد بانتهاء الحـرب الباردة - تجهز الولايات المتحدة على أية دولة تسـعى إلى لعب دور قريب من دورها، أو يعمل على إعاقتها.. إن العمل الأمريكى فى مواجهة القنبلة الباكستانية يحتاج إلى شرح..

فلنشرح

إن عدو باكستان الكبير فى منطقة آسيا هي الهند ..

والمعروف أن الهند دولة ضخمة تسـتمد قوتها العسـكرية الجيدة من الاتحاد السوفيتى، فهى تملك أسلحة سوفيتية عديدة وحديثة إلى حد بعيد!!

وحليفة الهند - روسيا - كانت وما زالت تغزو، وتهدد العمق الاستراتيجى للولايات المتحدة الأمريكية فى المنطقة أثناء الحرب الباردة.

وقد ظل موقف الولايات المتحدة فى فترة مبكرة من الحرب الباردة مشـجعًا لباكسـتان لتطوير التكنولوجيـا النووية، حتـى انتهت هذه الحرب. وبدأ (النظام العالـى) الجديد يفرض الرغبة الأمريكيـة التـى ترى أن امتلاك باكسـتان لأدوات نوويـة أو قنبلة (إسـلامية) يهدد مثل هذا النظام..

لقد انتهى عصر السماح أو إغضاء الطرف لعصر عدم السماح والرفض ..

كانـت الولايـات المتحدة الأمريكية قد سمحـت للهند بتطور برنامجهـا النووى فى محاولة لاستمالتها، حتى امتلكت الهند أكثر من قنبلة بالفعل..

غير أن ذلك كله قد انتهى الآن سواء لباكستان أم غيرها..

وكما حاولت الولايات المتحدة الأمريكية التصدى للقوى النووية العراقية دون أن تشير - مجرد إشـارة - إلى القوى النووية الإسرائيلية المتعاظمة، تشـير، وتشدد، على التصدى للقوى النووية الباكستانية دون أن تشير - مجرد إشارة - إلى القوى الهندية المتعاظمة..

ولا شـك أن الولايات المتحدة تعرف، جيدًا، القوى النووية الإسرائيلية، حتى أن آخر كتاب صدر إبان مؤتمر مدريد للصحفى الأمريكى سيمور هيرش بعنوان (خيار شمشون) يؤكد أن إسرائيل تمتلك ما لا يقل عن ثلاثمائة قنبلة نووية..

وعلى أية حال، فقد بادرت الولايات المتحدة الأمريكية للتصدى للمرأة التى كانت وراء مشروع تطويـر القنبلة النووية، فعزلتها، وتوالت العديد مـن المواقف الأخرى، التى أكدت – جميعها – على أن القنبلة النووية (الإسـلامية) مرفوضة اليوم، ولم تكتف القوى المعارضة بإقالتها، وإنما مع تواصل إصرارها إلى اغتيالها..

اغتيال امرأة واعية من الرجال الأمريكان الصناديد.

ويمكن فى هذا الصدد الإشـارة إلى عديد من الإشـارات والتصريحات والمواقف والوثائق التى تشير جميعها إلى هذا الموقف.

وسوف نكتفى منها بإشارات سريعة تعكسها لنا المحطة الأخيرة..

وقف المساعدة

أعلنت الولايات المتحدة، وفى وقت مبكر، أنها ستوقف مساعداتها لباكستان، لماذا جاء الرد مباشرًا وصريحًا؟: لارتيابها فى البرنامج النووى لباكستان..

وبالفعل تم إيقاف المساعدة الاقتصادية الضخمة..

وبدأت معاناة الشعب الباكستانى (المسلم)..

وأعلنت الولايات المتحدة لمرات كثيرة قلقها الشديد بسبب حصول أكثر من دولة إسلامية على أسلحة نووية، وكان موقفها العملى واضحًا بالنسبة لباكستان وهو وقف المعونة..

وكان موقفها الواضح العملى من العراق (عاصفة الصحراء).. وما تبعه من غزو العراق نفسه بعد سنوات، غير إننا يجب أن نتمهل أكثر عند إصرار بنازير وتحديها للآخر

للآخر الخارجى سـواء كان هذا الغرب والإمبريالية المتوحشـة أم إلى الآخر الداخلى متمثل فـى هذه القـوى المعادية لها الرافضة لأية قوى تسـعى إلى النيل من السـلطة الحاكمة.. وكان أكثـر المعاديـن لها هذا الغرب وموقفها من باكسـتان – إعلان القلق وإيقاف المسـاعدة – وقبل هـذا وذاك العمـل على عزل رئيسـة الـوزراء، ولا يبتعد عـن ذلك حين أعلنت أخـيرًا قلقها الشـديد بسـبب إمكانية إيران للحصول على أسـلحة نووية، وقد أقيم لذلك مؤتمر وزارة الدفاع الصحفى الأمريكى.

لقد اتخذ موقف أمريكا أكثر من وسيلة

واسـتخدم فيه إما العنف المباشـر، وإما القلق توطئة لفعل سـوف يتلو، وإما قطع المساعدة، وإما الإقدام مباشرة للتدخل السافر لعزل رئيسة الوزراء، ثم التخلص منها بعد سنوات..

بنك الاعتماد

غير أن قصة القضاء على بنك الاعتماد والتجارة (الإسلامى) يلقى بضوء أكثر على المصير الذى انتهت إليه قنبلة السيدة بنازير..

لقد حل البنك وقضى عليه تمامًا بعد مضى وقت ليس بالكبير عقب حرب الخليج، ومن هنا، تم الربط تمامًا بين عديد من العناصر التى أدت جميعها إلى أن يلقى البنك مثل هذا المصير..

لقد أكد عديد من المصادر والمراقبين السياسـيين على أن ذلك البنك كان وراء إسـقاط رئيسـة الوزراء بشكل مباشر خلال إجراءات معقدة ولكنها أكيدة لمخابرات غربية (أمريكية).

لماذا؟

وجاء الرد، لأن البنك كان مسـتمرًا فى مسـاعدة باكستان بوجه خاص (إلى جوانب أخرى..) فى تمويل المواد النووية إليها، ودعمها خلال عمليات سرية كثيرة.

لقـد كان الغرب يعرف بأمر هذه العمليات، وأيضًا شـارك فيهـا كثيرًا بما يخدم مخططاته، غـير أن ذلك اسـتمر فقط فى المدى الـذى يخدم توجهات الغرب فقط، لكـن حين تصل الأمور إلى حد تمويل مشـروع نووى وإسـلامى وبعد انتهاء الحرب الباردة، فإن ذلك غير مسـموح به لباكستان قط.

كانـت رسـالة الغرب واضحة؛ هـى، عدم القبول «بنقـل التكنولوجية النوويـة» لهذا البلد الإسلامى.

كان هذا هو وجه الغرب الحقيقى وراء قناع اللامبالاة....

لقد تحين الفرصة للقضاء على قدرات العراق النووية، ومازالت جماعات التفتيش الذى يرسل بها باسم الأمم المتحدة تسعى إلى ذلك..

وهـو يتحـين الفرصة الآن للقضاء علـى هذه المقدرات النووية فى أية دولة إسـلامية أخرى، وموقفه من إيران واضح كل الوضوح..

وكانت حركته السريعة فى باكستان لعزل رئيسة وزرائها..

خيار شمشون

ولا يمكن أن نصل إلى ذلك عن بنازير بوتو دون أن نسأل بسذاجة:

ولماذا لا يتم توجيه اللوم أو إبداء القلق أو سـحب المساعدات.. وما إلى ذلك من وسائل الضغط على إسرائيل؟

لقد أعلنت مصادر كثيرة أن إسـرائيل الآن انتهت من مشـروعات تطوير الأسـلحة النووية، وأصبحت تمتلك قنابل نووية بأعداد مهولة، وهذا يظهر واضحًا، وبدون أدنى تكذيب من كتاب سبق الإشارة إليه (خيار شمشون)..

وإسـرائيل نفسها تسعى إلى تأكيد ذلك بشـتى الطرق، ولعل هذا الكتاب الأخير كان بتوجيه مباشر من (الموساد) الإسرائيلى..

وإسرائيل لا تبعد عن ادعاءات أمريكا التى تصرح من آن لآخر بأنها لا تريد قوى نووية أو بيولوجية تهدد العالم، فباسم الشرعية الدولية لابد من القضاء على من يمتلك مثل هذه القوى الخطيرة..

الإجابة، تأتى، دائمًا بشكل أكثر، وأكثر لفتا للواقع الحقيقى:

وهل إسرائيل بلد غريب عن الوجود الأمريكى..؟

وهل إسرائيل - بوضوح أكثر - بلد إسلامى..؟

وهو ما يصل بنا إلى إشـارة أخيرة؛ المحطة الثالثة عبر اشارات متماثلة مع الاشارات السابقة ومؤكدة لها.. وتتوالى لدينا هذه الإشارات وسط الحزن على المرأة الصلبة الواعية

إن وكالة الصحافة الفرنسـية نقلت عن مراسـلها أنه تم إحراق مقر المحكمة ومبان أخرى فى يعقوب أباد مسقط رأس رئيسة الوزراء الباكستانية السابقة إثر اغتيالها.

يذكر أن الشرطة الباكستانية قد فرقت بالهراوات والقنابل المسيلة للدموع أكثر من ١٠٠ مناصر لبوتو فى مدينة بيشاور مطلقين شعارات معادية للرئيس مشرف.

شريف يخوض «الحرب» نيابة عن بوتو..............

تعهد رئيس الوزراء الباكسـتاني السـابق وأحد زعماء المعارضة نواز شـريف بأنه سـيخوض الحرب إنابة عن الزعيمة الراحلة بنازير بوتو. وقال شـريف: إنه يشـاطر الشـعب الباكستانى فجيعة مقتل بوتو.

وكان شـريف يخاطب بتأثر الحشـد الذى تجمع أمام المستشـفى حيث توفيت بوتو متأثرة بجروحها.

وقال لمناصرى بوتو وأشخاص كثيرين كانوا يبكون:

- «أعدكم بأننى سأخوض معركتكم اعتبارا من الآن.»

ونعود مرة أخرى للسؤال الذى طرحناه من قبل:

من هى بنازير بوتو؟

ونستعيد بعضا من الإشارات الأخيرة :

إن بوتـو قادت حملة ضد مشـرف وضد الإسـلاميين الأصوليـين واعدة بإزالـة التهديد عن باكستان!!

تقول الأوراق الشخصية الدالة على العام..

ولدت بوتو عام ١٩٥٣ وعاشت ضمن حياة سياسية معقدة فهى الابنة الكبرى لوالدها الرئيس الباكستانى الأسبق ذو الفقار على بوتو الذى أسس حزب الشعب عام ١٩٦٧. وشارك والدها فى الحياة السياسـية الباكسـتانية منذ الخمسـينات من القرن الماضى، ويعود له الفضل فى حصول باكستان على مفاعل نووى من فرنسا، حيث قادته الانتخابات إلى منصب الرئاسة عام ١٩٧٠.

وامتد عهد ذو الفقار بوتو حتى سقوط نظام حكمه فى انقلاب قاده ضياء الحق عام ١٩٧٦، ووضعت بنازير تحت الإقامة الجبرية آنذاك، حتى إعدام والدها ذو الفقار علي بوتو في السجن عام ١٩٧٩.

زعيمة حزب الشعب

وبعد وفاة الرئيس ضياء الحق إثر سقوط مروحيته في ظروف غامضة، تولت بنازير بوتو رئاسة الحكومة بعد عودتها إثر انتهاء دراستها في جامعة أكسفورد.

وقادت حزب والدها لتكون أول امرأة مسلمة تتولى رئاسة الحكومة فى العالم قبل أن يقيلها الرئيس الباكستاني غلام خان بتهم الفساد عام ١٩٩٠، وسجن زوجها حتى عام ١٩٩٣ حين استطاعت أن تعود إلى الحكم بالتحالف مع العسكر، قبل أن تمنى بخسارة مرة أخرى عام ١٩٩٦ في الانتخابات التي فازت فيها الرابطة الإسلامية. في مؤتمر صحفى (نوفمبر) ١٩٨٥

نقترب أكثر من بنازير الواعية..

لقد لاحقت تهم الرشا والفساد بوتو وزوجها مما دفعهما إلى اللجوء إلى انكلترا ثم إلى دبى عام ٢٠٠٢ حتى أصدرت المحكمة حكما يمنعها من دخول باكستان لعدم مثولها أمام المحكمة، ثم طلب الرئيس برويز مشرف من المحكمة العليا إصدار حكم يحدد سقفا لعدد مرات تولى رئاسة الحكومة لكيلا تزيد على مرتين لمنعها من الترشح.

وعادت بوتو إلى باكستان فى ١٨ أكتوبر/ تشرين الأول بعد عفو رئاسى أصدره مشرف فى إطار اتفاق تقاسم السلطة.

وقد تعرضت بوتو منذ عودتها إلى هجوم استهدف موكبها ومناصريها بتفجيرين انتحاريين في كراتشي في ١٩ أكتوبر/ تشرين الأول وهما التفجيران القويان اللذان أديا إلى مقتل أكثر من ١٢٥ من مناصريها.

غير أن هذا كله يدفعنا إلى ذكر العديد من الشكوك البدهية عن الطريقة التى اغتيلت بها ..

وهى طريقة يمكن أن نتقبلها بصدق فى نهاية الأمر، مادامت بنازير اختارت طريق «السلامة» للعيش فى زمن الولايات الأمريكية..

وطريق السلامة أيا كان امتداده فهو يؤكد – بالقطع – أن بنازير كانت امرأة صلبة من أجل حقوق أمتها، وكانت امرأة واعية لأنها رأت خطر نهاية الطريق ولم تتردد ..

وهنا كان لابد أن تسقط وسقوطها العنيف كان يشى كيف يمكن أن ينتهج الإنسان طريقه (طريق أمته) ولا يخاف من أية تهديدات ضده، مادام يمضى فى طريق العدل ..

ويكون علينا قبل التمهل قبل سقوطها عند ما تقوله وكالات الأنباء.

لقد راحت جريدة استعمارية بغيضة (التايمز) تعلل ماحدث لبوتو بإشارات سلبية
وحزب بوتو كان غائبا حتى الآن بشكل مثير ويحاول أن يجيب حول الأزمة ..
أن تفسـير ما حدث للمرأة الواعية في ملف يسأل ويحاول الاجابة، والاجابات المضللة كثيرة
تشـير الصحف الصفراء الإجابـة إلى أن الجيش الامريكي الذي يكافح من أجل منع المسـلحين الإسلاميين من اجتياز الحدود باتجاه باكستان، يتلقى فجأة مساعدة من الجيش الباكستاني.
ما معنى ذلك؟
الإجابة واضحة ومؤلمة في آن واحد، فهي تفسر الكثير في إشارات إلى الطريق الثالث

المحطة الأخيرة أو الطريق الثالث :

وباختصار شديد ..
لقد سقطت بوتو لأنها سعت إلى امتلاك قنبلة نووية – إسلامية، فسقط بنك الاعتماد (الإسلامي)
وسيسقط غيره في حالة أن تجرؤ أية قوة إسلامية على امتلاك المقدرة النووية..
وستسقط قوى كثيرة غدا تسعى إلى ذلك باسم الشرعية الدولية
الشرعية الدولية هي التي تملكها الولايات المتحدة الأمريكية وتمثلها..
وهي الشرعية المزعومة والتي يباهي بها العم سام كل القوى أمامه
وهي الشرعية التي تصل بنا إلى الطريق الأخير....
وصباح الخير أيتها الشرعية، الدولية..

مراجع

- أون لاين: ١٢/ ٢٧/ ٢٠٠٧
- أون لاين /٠٦/ ٢٠٠٨
- البيان الإمارتية – شتاء ١٩٥٨
- بوتو خلال مؤتمر صحفي – نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٨٥
- http://www.radiosawa.com/arabic_news.aspxid
- http://www.alarabonline.org/index.asp
- www.saudiinfocus.com
- Benazir Bhutto, Pakistani prime minister and activist- 2007-p112 Mary Englar
- Compass Point Books- London- New York 2007



نيلسـون مانديـلا هو المناضل الإفريقى المعـروف ضد التفرقة العنصرية فـى جنوب إفريقيا.. والصفحات التالية ليست عنه، وإنما عن زوجته وينى..

لقد قيل له، بعد أن ظل أقدم سـجين فى العالم - ٢٧ سـنة -: إن زوجته كانت خارج السجن، ترتكب أبشـع الجرائم، وتدمن أبشـع الخيانات الزوجية، بل أكد محامو العائلة أنهم كانوا يبلغونه أثناء السجن بكل شىء، ولم يجد الزوج بعد مغادرته هذا السجن غير أن ينفصل بهدوء عن وينى..

كانت وينى قد تورطت فى أشياء كثيرة، تشوش عقلها بفعل الاضطهاد وغياب الزوج والمطاردة والنفـى وإدمـان الكحول وانتهى الأمر بها - بعد ارتـكاب تهمة القتل - إلى المحاكمة، وبدأت محاكمتها فى المحكمة العليا..

فـى المحكمـة العليا كان هذا التحقيق: الأول، مع صديقتهـا، ثم عاود المحقق التحقيق مع وينى نفسها..

ولم يكـن لنـا فضل فى ذلك كله غير الاسـتماع طويلاً إلى بعض ما دار فـى هذه المحاكمة، ومحاولة نقل بعض منها فى المحاضر.. ولم نستخدم الخيال فيها إلا قليلاً..

أولا: محضر تحقيق مع فلانة

- وماذا أيضًا يا فلانة..؟

وراحت زوليسـوا الصديقة الوفية لـ وينى لسـنوات طويلة، تقـول، وكأنها تزيح عن صدرها حجرًا ثقيلاً..

«كان يطلـق عليهـا لقب النمرة، المرأة النمرة لقسـوتها فى التعامل مـع من حولها، وخاصة الرجال، وقد كان حراسها يخشون منها كثيرًا، وخاصة حين تشرب الكحول، لقد كانت مدمنة للكحول بشكل خطير..

«بالطبع، كان زوجها يعرف كل شـىء عنها، داخل السـجن أم خارجه، كانوا يبلغونه كل شىء، حتى إننى خشيت عليه كثيرًا بعد أن خرج من السجن، وقد كان عليه أن يختار، ماضيه السياسى ومن ثم مستقبله، أو ماضى وينى ومن ثم ضياعها..

كان الاختيار بين المرأة المجهدة ورئاسة المؤتمر الوطنى الإفريقى

كانت وينى خطرًا على كل من يقترب منها.

– لقد اقتربت أنت منها كثيرًا..!

– بالطبع، اقتربت منها كثيرًا، وفعلت من أجلها الكثير..

شيزوفرينيا

لقد كانت وينى حين تتجرع الكحول تتحول إلى امرأة أخرى، كنت لا أعرفها، كانت تتحول إلى حالة تشبه الشيزوفرينيا – مرض ازدواج الشخصية – كان الكحول يطلق فيها القوى المعلقة، فتتحول إلى وحش هائج، تشوش عقله، وفى ضوء ذلك لا يرى ما يراه الإنسان الطبيعى..

كانت وينى – للإنصاف – فى الحالة الطبيعية لها امرأة ودودًا، طيبة، تبث فى أحاديثنا كل الخواطر النبيلة لحزن عميق فى النفس البشرية التى لاقت فى طفولتها الكثير من الظلم، ثم عاشت ما تبقى لها من عمر – بعد سجن الزوج – فى شقاء مقيم..

لقد أصبحت امرأة أخرى متوحشة..

– ما مظاهر هذا الشذوذ..؟

«الكثير، كانت، بعد الكحول تصدر أوامرها بعنف شديد، وتحث الجميع حولها على تنفيذ أوامرها مهما تكن قسوتها أو غرابتها، وفى خلال ذلك ارتكبت وينى أفعالا قاسية كثيرة، أجبرت الكثير من الشبان للانضمام إلى تنظيمها، وعذبت الكثير ممن رفض ذلك، بل أقدمت على القتل..

ولم يكن يستطيع أحد ممن حولها أن يعصى لها أمرا، كان حراسها يخشونها، فيندفعون إلى تنفيذ أوامرها..

وفى الغالب كانت تستيقظ من هذه الحالة..

– هل تعانى من هذه الحالة بعد أن تستيقظ وبصورة أخرى، هل كان استيقاظها يستمر وقتًا طويلا؟

– «لا، إنها تستيقظ فجأة، كما أغرقت فى السكر فجأة، ثم تتحول إلى إنسان آخر، وديع طيب، تروح تتحدث فى ود إلى حراسها، وتبدى العجب مما اقترفته، وتسأل ببراءة: :

لماذا فعلتم ذلك؟

وكانت تغرق بعد ذلك فى حالة من الندم الشديد مما يجعلنا نشفق عليها، كانت صديقتى مريضة، هكذا كنت أحدث نفسى وأصمت..

وتمشى فى جنازته

الأكثر من ذلك غرابة، أنها بعد أن تقتل هذا الرجل أو ذاك، تعود إلى رشدها، فتذهب لتقدم التعازى، وتشارك فى الجنازة..

إنها تقتل القتيل وتمشى فى جنازته..

- هل تذكرين واقعة محددة؟

«ليس أقسى من الواقعة الأخيرة..

كانت وينى تجيء إلى منزلها بمن تريد التخلص منه، وقد كان آخر هؤلاء أربعة من الشبان التى وضعتهم فى ساحة المنزل فى (سوتيو).. كانت وينى قد أغرقت فى تناول الكحول، وبسرعة راحت تلقى أوامرها، وبعد محاكمة صورية لم تستغرق دقائق، أمرت بالتعذيب المستمر..

كانت التهمة لأنهم كانوا قد تورطوا فى عملية تجسس لصالح النظام العنصرى، وكانت تشكو فى الفترة الأخيرة أن كثيرًا من العناصر المؤيدة لها هى عيون للنظام العنصرى ضدها..

وقد استمر التعذيب حتى الموت..

- لقد كنت صديقة حميمة لـ وينى.. ما سر هذا الانقلاب المفاجئ ضدها؟

«لقد تحملت الكثير من أجل وينى، غير أن الأمر زاد عن حده كثيرًا، لقد عشت معها الكثير من محاولات الاغتيالات، والتى لم تتوقف لربع قرن من الزمان، بل وصل الأمر بها أنها حاولت القضاء على قادة المؤتمر الوطنى الإفريقى نفسه».

الزوج المسكين

- لا تحاول أن تخدعينا، لقد كنت شريكة لها..

لماذا تراجعت الآن فقط ؟

«لأننى - ببساطة - أردت حماية الزوج المسكين منها، لقد عرف مانديلا السجن الطويل، وخرج من العتمة المستمرة ليجد زوجته وقد أحاطتها علامات اتهام كثيرة، وتساؤلات شتى..

كنت أعرف عنها ذلك وأشفق على الزوج المسكين»

- وهل هى آلات التعذيب والقتل فقط ؟

- والخيانة الزوجية أيضًا، وبوضوح..

لقد عرفت الكثيرين من عشاق وينى، وخاصة بعد فترة النفى التى استمرت فيه قرابة تسع سنوات، لقد خرج الزوج من السجن الصغير ليجد نفسه - إزاء زوجته - فى سجن كبير.. لقد عرفت العشاق جميعهم، حتى بعد خروج وينى من السجن، وبعد خروج مانديلا من السجن لم تتوقف عن عشاقها.

كان مانديلا قد رحل فى مهمة إلى خارج البلاد عقب خروجه من السجن، وحين اتصل بزوجته فى جنوب إفريقيا لم يجدها، اخبروه بأنها سافرت إلى أمريكا، وحين اتصل بها هناك، أخبروه فى الفندق: إنها فى حجرتها الخاصة، اتصل بها فى حجرتها الخاصة جاءه صوت رجالى غليظ من بعيد:

– ماذا تريد؟

حاولت قتلى أنا

– وماذا عن بقية الاتهامات؟

«أوافق عليها، فهى لم تتوقف قط عن قتل الكثيرين، قتلت صحافيين وأطباء وسياسـيين، لم يستطع أحد مراجعتها، ولم تستطع هى كبح جماح رغباتها العديدة

كنـت أقف إلى جانب وينى، نعم، لأنها صديقة، غير إننى اكتشـفت. فجأة، عكس ذلك، فحين يتسـع الأمر لكل هذه الجرائم لا أسـتطيع الكتمان، لقد انتهى بها الأمر إلى أنها حاولت قتلى أنا.. سيدى المحقق، يكفى اليوم أربع ساعات تحقيق..»

(صورة طبق الأصل)

ثانيًا: محضر تحقيق مع وينى

– والآن يا سيدة وينى، الآن ننتظر الإجابة عن كل هذه الاتهامات؟

«اتهامات (بدت عينا وينى زائغة، وفى حالة من الضياع الكامل، تماسكت، عاودت الحديث على مهل..) سوف أتحدث عن شيء آخر، ربما وجدت فيه إجابات كثيرة..

لقد قبض على زوجى سـبعة وعشرين عامًا عشت خلالها بمفردى، عرفت سنوات قاتمة، لم يتردد فيه النظام العنصرى عن اتباع شـتى الطرق لمضايقتى: التجسس، المراقبة، فتح الرسائل، الاعتقال، السجن..

لقد بلغ الأمر أننى فى إحدى المرات، حين كنت أخلع ملابسى، أن فوجئت برجل، يتسلل بعينيه على جسـدى، كان متخفيًا خلف سـتارة فى نفس الحجرة، لقد كان أحد الجواسـيس، فى غرفة نومى..

لقد كان زوجى فى السـجن هناك (فى جوهانسـبرج)، وكنت أنا فى سـجن آخر هُنَا، لقد نفيـت فى إحدى المرات إلى براندتورت.. هل تعلمون الفترة القاسـية التى قضيتها هناك وحيدة حزينة تعسـة، تسع سـنوات، هل تصدقون أيها السادة، وتتصورون وطأة ذلك على امرأة بعيدة ووحيدة..

لقد قضيت مع زوجى خمس سنوات، وفى السجن والنفى أكثر من عشرين عامًا»

تزوجت القضية

– وهـل كانت السـنوات التـى قضيتها مع زوجـك هادئة، أو أن طبيعتك ماجنة يا سـيدة وينى..؟

. – لم تكن كذلك، كان ميلى إلى نيلسـون، منذ البداية، ميلا مشـتركًا، كان كل منا له همومه الوطنيـة التى كانت تمثل لدى كل منا أشـياء أخرى نقـوم وننام بها، وهل أنكر أن غرامى به، وزواجى به منذ البداية، كان لعلاقاتى الحميمة بالقضية الوطنية..

كان أبى مدرسًا للتاريخ، ومع ذلك كان يضع الكتب جانبًا دائمًا ويصيح فيمن حوله: (البيض ليسوا الأسياد الشرعيين فى بلادنا، غزوها وسرقوها من أجدادنا).

وأذكر أن هذا الأب حين علم بنيتى فى الزواج من مانديلا قال:

(تذكرى أنك لم تتزوجى نيلسون، وإنما القضية)

وحتى بعد أن تزوجنا كان الوطن دائمًا معنا..

من يسـتطيع أن يزعم أن حياة المرأة – أية امرأة – يمكن أن تظل دائمًا انتظارًا ونضالا ونفيًا وتمردًا وسجنا كما عرفت أنا..

لقد تعذبت كثيرًا فى غيبته، وتعذبت كثيرًا معه، لماذا.. لأن الخصم فى الحالتين كان النظام البغيض، الخصم كان الرجل الأبيض، والضحية دائمًا كانت الرجل الأسود والمرأة السوداء..

كان الرجل الأبيض، الغربى، أيها السادة، يسمم حياتنا..

– أنت تمزجين بين العام والذاتى. لماذا؟

لم أعد أستطع أن أفعل العكس، لقد فوجئت بأن زوجى يقضى العقوبة مدى الحياة فى (كيب تاون)، هل تتصورون وطأة ذلك على امرأة فى ربيع الشباب.. هل أذكركم للمرة الألف..

لم أعـرف، منـذ قبض عليه، يومًا واحـدًا بدون تحرش بى، الإهانـة، الاتهامات المتكررة، المراقبة المستمرة، القبض علىَّ من آن إلى آخر، الاستجواب الذى لا ينتهى، والنفى أيضًا..

لقد قضيت شـبابى كله فى السـجن والنفى والاضطهاد، الزوج فى سـجن، وأنا فى سجن، والقضية فى سجن، والشعب فى سجن..

هل تتصورون ذلك يا سادتى..؟

– وما علاقة ذلك كله بسلوكك المشين؟

وعن أى سـلوك تتحدثون، امرأة وحيدة فى برد طويل لا ينتهى، وغربة لا أعرف مداها، لم أعد أنا وينى، لم أعد أعرف عمن تتحدثون..

من أصبح، حسـن، لقد ماتت نوفرامو – الحالمة كما كانوا يطلقون علىَّ فى القرية – لم أكن قد جاوزت الثلاثين حين وقف العالم كله ضدى..

هل تعرفون يا سادتى أنه بمجرد القبض على نيلسون، تعرضت لمضايقات وحشية؟

هل عرفتم أن البوليس كان يحيط بمنزلى دائمًا؟

هل تعرفون أن منزلى تحول فى إحدى المرات إلى مركز شرطة؟

كنــت أصحو فأجـد البوليس الأبيض، ولم يكن يختفى حين أغمض عينى، كنت أراه أيضًا، سواء فى أحلامى أم فى كوابيسى..

دعونى أصارحكم، كنت أعرف أن أقرب المخلصين لى كانوا عيونًا علىَّ لصالح نظامكم الأبيض الغربى العنصرى، وكنت أعرف الكثير منهم بالاسـم، إن صديقتى – فلانة – وأكاد أقسـم لك، هى من مخبرى نظامكم.. كنت أعرف ذلك منذ زمن مبكر..

والآن أعرف، ما شكل الدراما التى توشكون أن تضعونى فيها، إنها دراما مأساوية دون شك.. أعرف.. السيد هناك يتحدث عن الديموقراطية، أيها السادة لا تحدثونى عن ديموقراطيتكم..

إن الديموقراطيــة عندكــم غير التى تريدون أن تمنحوها إيانــا.. ديموقراطية نظامكم الجديد، عالمكم الجديد، نعرفها جيدًا، نحن النساء السود، وأبناء العالم الثالث..

خذوا ديموقراطيتكم ودعونا كما نريد..

....

....

....

(صورة طبق الأصل)

المراجع

– علـى الرغـم من دور ويني الكبير في حياة زوجها أو بعيدا عنه حين كان في السـجن، فإننا نسـتطيع العثور على عديد من المصادر تتحدث قبل كل شـيء عن نبوغها، وهو ما يمكن الاشـارة إليه هنا، لابالنص السـابق ولا بالمحاولة المهمة هنا التي أشرنا إليها بشكل غير مباشر بالمـتن، إننـا نلاحظ أن أي مرجع أو مصدر يركز في المقام الأول على علاقاتها بغيرها بشـكل غريب مغرق في الرومانسية، ومن هنا، لن تعود إلى الحياة المصرية خاصة التي عاني منها زوجها بشكل مرير ..

– وعلى هذا النحو، تطالعنا المقالات أو الإشارات الرقمية بحياتها الخاصة بشكل مباشر وهو مارفضنا أن نقوم به في المتن، ومن هنا، نسـتطيع أن نشـير إلى هذه الحياة بسيرة غيرية ونترك المـتن وقـد تفرقت مصادره إلى عديد من المقالات القليلة، والإشـارات التي لم تمنحنا إطارا عاما «للشـخصية» أو النمطيـة في حياتهـا، وهذا يمثل هذه الفقرة التي تزخـر بها المراجع والمصادر الكتابية منها أو الرقمية..

وهو ما نشـير إليه هنا، ونترك التفاصيل المهمة للمتن، مع إشـارة لبعض هذه المصادر الرقمية بوجـه خـاص، نقـرأ أن، إنها حصلت – أي وينـي مانديلا – مطلقة الزعيم نيلسـون مانديلا وأيقونـة مناهضة نظام الفصل العنصري على شـهادة جامعية في العلاقات الدولية بعد ٣٨ عاما من الدراسـة. وتسـلمت ويني الملقبة من جانب كثيرين في جنوب إفريقيا باسم أم الوطن شهادة تخرجها في احتفال بجامعة ويتووترزاند التي بدأت الدراسة فيها في عام ١٩٦٧. وقالت ويني البالغة من العمر ٧٠ عاما في تصريحات نقلتها صحيفة سـويتان: أردت أن أعمل أشياء تقدرون علـى فعلها.. لكن في مرحلة متأخرة من حياتـي.. بعد التحرر. وأضافت أردت أيضا أن أثبت لأبنائي وأحفادي أنني أحب الاستذكار أيضا.

والمعروف أنه سـبق أن أدينت ويني عام ١٩٩١ بخطف سـتومبي سيبي وهو ناشط سياسي لم يتجـاوز عمره ١٤ عاما عثـر على جثته فيما بعد قرب منزلها. وبرئت من اتهامات بالقتل العمد و التزوير والسرقة.

كانت ويني قد لقبت بأم البلاد لكفاحها ضد حكم الأقلية العنصرية البيضاء التي تعرضت خلالها لتحرشات من جانب الدولة. ولكن حياتها مع الزوج المناضل لم تكن بشكل نموذجي..

وهنا يمكن العود إلى العديد من المصادر الرقمية ومنها :

– http://www.alyaum.com

– http://rds.yahoo.com

في موضع آخر نجد هذه السيرة التقريرية، التي نحب أن نسجل بعضها هنا، لأهميتها في

الإشـــارة إلى الحياة السياســية حولها ثم مع زوجها، نقرأ فى عديد من المصادر مثل هذا التقييم: قاض على منح الرئيس الجنوب إفريقى حق الطلاق عام ١٩٩٦، بســبب الادعاء الذى أشــار إلى أن زوجته «وينى» كانت غير مخلصة. يذكر أنهما تزوجا عام ١٩٥٨، أثناء المحاكمة التى دامت خمســة أعوام بتهمة الخيانة، والتى كان مانديلا متهماً فيها. وأثناء جلســات الاستماع فى قضية الطلاق، ذكر مانديلا بأن زواجه انهار مباشرة بعد أن تم إطلاق سراحه من السجن عام ١٩٩٠.

– http://arabic.cnn.com/2007/entertainment

٧

المسيطرة

نانسى ريجان

نشـرت نيويورك تايمز – أشهر الصحف الأمريكية – منذ سنوات – رسمًا كاريكاتوريًا لسيدة أمريكا الأولى (السـابقة) – نانسـى – وهى تندفع نحو مائدة الإفطار، عشـية انتخاب زوجها الرئيـس ريجـان – وقد ارتدت ثوبًا طويلاً من الفراء، وثوبًا فضفاضًا، وتغطى نفسـها بكومة من المجوهرات، وقد أمسـكت مبسمًا فى إحدى يديها وكأسًا من المارتينى فى الأخرى، بينما يرفع الرئيس رأسه عن كتاب يقرؤه وهو يقول:

– نانسى.. لقد انتهت حفلات التنصيب، وعليك الآن ارتداء ثوب الحمام

فتجيبه نانسى بسرعة:

– هذا هو ثوب الحمام

هذه إذن صورة سيدة أمريكا الأولى فى ذلك الوقت:

- ترتدى الفراء
- ترتدى ثوبًا فضفاضًا
- تغطى بالمجوهرات
- فى يدٍ مبسم
- وفى اليد الأخرى كأس

هـذه هى صورة السـيدة الأولى فى البيت الأبيـض، زوجة للرئيس ريجان طيلـة الثمانينات (٨١/ ١٩٨٩) قبل أن ينهى دورته الرئاسـية الثانية.. هذه هى الصورة – الرمز الذى سعت لرسم صورة السيدة العنيفة، المسيطرة بإحساس الأنثى العنيف ..

هذه هى السيدة التى كانت وراء قرارات الرئيس – كل قرارات الرئيس – فى هذه الفترة، التى شـهدت أخطر القرارات وأهمها: مشـروع الدفاع الاسـتراتيجى، والذى يعرف (بحرب النجوم)، القرار بالإنفاق الباهظ على ميزانية الدفاع على حساب عجز الميزانية العامة، دعم متمردى الكونترا، فتـح جبهة جديدة تسـمى (الإرهـاب) والتصدى لها، فضيحة «إيران جيـت»، اتفاقية التحالف الاسـتراتيجية مع إسـرائيل.. إلى غير ذلك مما يعد خلفية لتفسير كل أحداث العالم التى مازالت تستمر، وتنطوى الآن، على هذا التأثير خاصة، وقد كان النائب الأول لريجان هو الرئيس بوش.

هذه هى السيدة التى كان طموحها أكبر من أى شىء حولها، فانساقت حوله، حتى أصبحت، تهيمن على كل قرارات الرئيس الأمريكى فى العالم كله..

هل تذكرنا هذه السيدة بنساء كثيرات أخريات؟

قبل أن نجيب، لنعاود الاقتراب من نانسى..

..

حياة السيدة الأولى تمنحنا صورًا كثيرة لطبيعتها ...

ولا يوجد كتاب واحد (حتى ولا كتاب صحفية واشنطن بوست كيتى كلى عن نانسى)، يمكن أن يفى بهذه الصور عن طموح نانسى وجموحها الشديد..

ومع ذلك، فإن بعض الصور العابرة من وجود نانسى فى حياة ريجان يمكن أن تمنحنا مثل هذه المعرفة بما يقربنا من موضوعنا الأساسى..

وسوف تتعدد هذه الصور خلال الإشارة بشكل مباشر، أو غير مباشر، إلى ملامح من شخصية هذه السيدة، وهى ملامح – كما أشرنا – لا تنصرف إليها وحدها، وإنما يمكن أن تصور (نموذجًا) دالاً لسيدات كثيرات بيننا.

« الملكة نانسى » :

صور طموح نانسى لا تحد

إنها الصورة التى استطاعت أن تتركها منطبعة فى عقل كل من قابلوها أو تركوها، وهذا الطموح بدا واضحًا منذ بداية حياتها فى المواقف العامة، بينما بدا أكثر وضوحًا حين أصبحت السيدة الأولى فى أمريكا فى الحياة السياسية.

كان طموحها الفنى – لكونها كانت ممثلة – لا يخفى على أحد ممن عرفها فى ذلك الوقت، فإحدى زميلاتها – سالى جافين – تلاحظ ترديدها لأسماء فنانين كثيرين كانت تزعم أنها تعرفهم حق المعرفة وعلى الرغم من أن المسرح كان شيئًا لامعًا – لكنه لم يكن مقبولاً على المستوى الاجتماعى – .. فأن القريبين منها فى ذلك الوقت كانوا يلاحظون عليها أنها لم تكن حريصة فى الحصول على المؤهل للعمل بالمسرح لكنها كانت أكثر حرصًا على إبداء الرغبة والفعل للعمل كنجمة فى المسرح (بأسرع وقت ممكن).

وتقول أخرى: كانت تستخدم كل الطرق للحصول على الدور الذى تريد أن تقوم به؛ مما يكسبها نجومية فريدة..

وتضيف ثالثة: «إن النجومية بالنسبة لها كانت مسألة «حياة أو موت والمحرك الأساسى لحياتها»..

وقد كان هذا الطموح قد انعكس – كذلك – في طريقة اختيارها زوجًا معينًا، تتوفر فيه الشروط التـي تقرب بينها وبين ما تريده، وقد راحت تسـرد علـى زميلاتها، حينئذ، أسماء كثيرة، ثم تختـار منها مـن كان في رأيها أكثر من غيره طموحًا وجموحًـا إلى النجومية، وهكذا، ارتبطت برونالد ريجان الذى كان في ذلك الوقت ممثلاً من الدرجة الثانية، وبذلت جهودًا، لسـنوات، وكل الوسائل، لتحظى به في نهاية الأمر.

ولا نكـون مبالغين إذا قلنا إن نانسـي كانت وراء ريجان في الوصـول إلى أن يكون الرئيس، الرجل الأول في أمريكا، لتحتل هي – بالتبعية – مكانة السيدة الأولى.. إن الكتاب الذى صدر عنهـا أخيرًا يتضمن كثيرًا من الإشـارات التى تؤكد طموح خطر نانسـي، هـذا «الطموح الكامن المركب الذى يتلمس الاعتراف به» حتى إلى أكثر الناس معرفة بها، قال: إنها مدفوعة للحصول على الاعتراف بنفسها. وهي تريد أن تكون شيئًا ما وكان ريجان هو العربة.

وقد ظهرت الأنا المختفية دائمًا في كثير من المواقف..

وحين كان لكل من زوجات الرؤسـاء السـابقين موقف معين، كان لها – في كل مناسـبة – موقف معين، لقد اهتمت ليدى يرد جونسـون بالتجميل، وبأن نيكسـون بالتطوع، وبيتى فورد بحقوق المرأة، وروزالين كارتر بالصحة العقلية، أما نانسى فقد بدت وراء مشاريع كثيرة، تتبناها فـي الظاهـر، بينما هي في الباطن التى كانت وراء فكرتها لتغزلها ضمن خيوط أخرى كثيرة في مغزل الطموح الصارخ.

ولهـذا، فإنه لم توجد سـيدة أولى، سـابقة، أو لاحقة، تميزت بهـذا الطموح المركب الخطر مثلها؛ ولذلك، فإن نانسي، الوحيدة، التى نالت درجات من الألقاب التى تعبر عن هذا الطموح الخطر الكبير..

لقد وصفت مرة بأنها ماكيث

وتحديدًا إن طموحها السياسـي يفوق (ليـدى ماكبث)، وأضافت جريدة لوس أنجلوس هارلد أكساميز سلسلة لتشرح ذلك وتكشف عنه بعنوان:

(المرأة التى كان يمكن أن تصبح ملكة)..

وراحت الصحف تمنحها الكثير من الألقاب التى تعبر عنها تمامًا.. فهي تتصرف مثل مارى أنطوانيت..

وهي تبدو لدى الأطفال خاصة على أنها (الملكة)

وهي عند الآخرين والمقربين منها أكثر شبهًا بالإمبراطور أغسطس ومارى تود لينيكون وأدولف هتلر خاصة في اعتمادها على المنجمين التى كانت – من خلالهم – تقود سياسة البيت الأبيض بوحى من تسلطها وتفردها فيما تريد..

ولم تقتصر هذه الصور المتسلطة لسيدة البيت الأبيض على الولايات المتحدة الأمريكية وحسب حيث موطنها، وإنما كذلك في الغرب كله، فما كادت تذهب إلى أي من أقطار الغرب في أوروبا إلا وكان يشـير الجميع إليها على أنها «الملكة نانسي»، وقد كان من السهل أن تراجع الصحف التي تصدر في هذه البلاد التي تزورها حتى تلحظ أن صورها تظهر وهي ترتدي تاجًا فوق رأسها وتمسك صولجانًا في يدها.

إن نانسـي كانت مغرمة بأن تظهر على أنها - بالفعل - الملكة، التي تتدخل في كل كبيرة وصغيرة، والتي يمتد تأثيرها الصارخ إلى خارج أمريكا..

إنها النموذج (المتسلط) الفريد في عالم اليوم..

بيد أن هذا التسـلط امتد من تحديد صورتها بشـكل مباشـر إلى زوجها؛ فلأنها زوجة الرجل الأول في أمريكا، كان لابد أن تحسن دائمًا من هذه الصورة، ومن هنا، زخرت هذه الفترة بصور التدخل، في قرارات زوجها ومواقفه السياسية والاستراتيجية سواء داخل أمريكا أم خارجها.

في البداية لم يكن التأثير على زوجها صريحًا ومفاجئًا، وإنما استبدلت بالسيطرة على الرئيس شـخصيًا التأثير وربما السيطرة على وسـائل الإعلام حولها من صحف كثيرة وعديد من القنوات والشبكات التليفزيونية..

وهنا نصل إلى الصورة الأخرى

نانسي أولاً :

كانت كل الملابسات حول السيدة الأولى تشير إلى أنها كانت تضع نفسها في مكانة أعلى من أي إنسان آخر، حتى لو كان ذلك زوجها.

كانت الصحافة الأمريكية وشبكات التليفزيون لاحظوا ما تفعله نانسي، ومن ثم، عادت نغمة الهجوم التي لم تتوقف من قبل عليها مرة أخرى..

وهنا نلحظ موقف نانسي من محاولة استمالة رجال الصحافة والإعلام بوجه عام، وهو موقف التزمت به كثيرات أخريات من نساء العالم الأول والثاني والثالث..

سـعت نانسي إلى الاندماج والارتباط أكثر بصفوة المجتمع الأمريكي مثل كاترين جراهام ناشر جريدة الواشنطن بوست، وقد أسهم الناشرون في التأكيد على دور آل ريجان، خاصة وأن نانسي راحت ترسل بالعديد من البرقيات إلى نجوم المجتمع.

وقد اسـتطاعت نانسـي كذلك التأثير في أهم كُتّاب الأعمدة في «النيويورك تايمز» بل وسعت ونجحت في تحويله إلى مستشار رسمي لزوجها - الرئيس الأمريكي ..

وتعددت صور استمالة الصحفيين والتأثير عليهم

وهو ما حدث بشكل كبير مع مذيعى التليفزيون..

بل إننا نلاحظ أن تأثير السيدة الأولى على المذيعين بلغ إلى درجة الإشادة الدائمة بها، وراحت وسائل الإعلام تتحدث عن مشروعاتها للأطفال المعوقين، وعن الفستان الغالى الذى ارتدته يوم تنصيب ريجان خاصة..

وقد كانت تستخدم وسائل الإعلام فى تحسين صورتها من آن إلى آخر، فبعد أن بدأت الصحف تتحدث عن ثرائها، وفساتينها المغطاة بالجواهر، ولا مبالاتها، راحت تستفيد من هذه الوسائل، فتظهر - لأكثر من مرة - وهى تحمل طفلاً معوقًا، ويفضل أن يكون من السود؛ لاستلفات النظر واستمالة الجمهور..

والملاحظ أن السيدة الأولى كانت تعمل على أن تكون صورتها الإعلامية أكثر لمعانًا من أية شخصية أخرى، حتى إنه فى بريطانيا لوحظ - أثناء زيارة ريجان وزوجته - أن التغطية الإعلامية لنانسى كادت تفوق التغطية لزوجها..

كانت لقاءات نانسى مع أفراد العائلة المالكة تظهر فى كل مكان

كانت نانسى أولا، والزوج يأتى بعد ذلك.

« ابتسم يا عزيزى » :

وقد جاوز هذا التأثير صورة نانسى إلى صورة الرئيس الذى تحركه نانسى، ولا يمكن أن نتحدث عن عديد من الإنجازات التى قام بها ريجان دون أن نشير إلى أن نانسى كانت وراءها..

فى البداية، ومنذ حملات ريجان الانتخابية الأولى حاولت نانسى أن تكون هى المسئولة عما يحدث منه أو له، وعلى رغم إجراءات الأمن الكثيرة، فإنها كانت تتولى تحريك الرجل الأول، لم تكن تفارقه قط، تجذبه بسرعة من أمام الراغبين فى الحصول على صورة فى كل محطة، تأمر الحرس بحجب الثرثارين من أمامه، تهمس، كل مرة يبدأ فيها بتسجيل تليفزيونى له:

(ابتسم يا عزيزى.. ابتسم)

وتقول كيتى كيلى - صحفية الواشنطن بوست - فى هذا الوقت..: إنها كانت تسر إليه ما يجب أن يقوله وراء الكواليس، ويذكر مايكل - الابن - أنها كانت تسمع والدى وبعد ذلك تعود وتجرى مناقشة معه على نمط لا تتحدث عن نمط فوزك كثيرًا، وبدون أن تتخلى مطلقًا عن هذه النظرة المحدقة، نجحت فى إنقاذ الكثير من التعليقات الحرجة التى لا تحصى.

ميكروفون نانسى :

ولم يتوقف الأمر على ذلك، فكثيرا ما كانت - أثناء الحملات الانتخابية - تلتقط منه الميكرفون بعنف لتعيد إجابته بشكل جيد..

وهنا نقرأ شهادة أحد المحررين السياسيين شاهدى العيان لحادثة بعينها:

(سئل زوجها سؤالاً محرجًا من أحد المؤيدين؛ كان يريد أن يعرف ماذا سيفعل ريجان تجاه المخدرات إذا انتخب رئيسًا؟. والمشكلة لهذه الأسئلة غير الدقيقة أنها تشجع الإجابات غير الدقيقة وجاءت إجابة ريجان لتزيد الحيرة هنا وهناك دون أن تقول الكثير باستثناء اقتراح احتمال قيام الحكومة الفيدرالية بشن حملة تحقيقات حول مخاطر المخدرات.

واستمعت بانتباه كما يجب على نانسى ريجان فقط أن تبدو حين يتحدث زوجها.

ولكن حين انتهى أخذت خطوة غير تقليدية بأن أمسكت الميكرفون كى تعدل إجابة زوجها وقامت حقًا بتحسينها وأعطت إجابة محافظة أكثر منطقية..)

ونحن لا يهمنا الإجابة هنا؛ إذ إنها كانت جزءًا من تفسيرها الحاضر وتفكيرها المنظم جيدًا للحصول على أكبر الأصوات لزوجها، ولكن الذى يهمنا هو تلك الطريقة غير التقليدية التى كانت تتطاول بها - ليس على زوجها فقط - وإنما على الشعب الأمريكى نفسه لفرض ما تريده عليه حتى لو اضطرت لنزع الميكرفون من زوجها..

بل إن نانسى لم تتورع، فى موضع آخر، كان ريجان فيه قد احتد، وبدأ يدخل فى نوبة ارتباك كبير أمام الجمهور.. لم تتورع من القفز على المنصة (حين كان الزوج يتصبب عرقًا)، ثم تقول له - ولما تصل قدماها إلى الأرض - ما تريده أن يقول أثناء مناظرة مع أحد الناخبين الآخرين؟.

ولأن نانسى زوجة تطمح إلى السلطة والنفوذ أكثر من الزوج والتقاليد الدستورية، فإنها لم تتردد أن تفعل أى شىء - حتى بعد أن أصبح زوجها رئيسًا لأمريكا بالفعل - فى بداية الثمانينات..

كانت تشير إلى هذا المسئول ليصمت فيحدث ذلك، وكانت تشير إلى زوجها أن يتنحى عن فعل شىء لآخر، فلا يتردد - فى غالب الأحيان - فيساق إليها، وقد لاحظ هذا التسلط كل من كان حول الرئيس، بدءًا من الصحفيين ومسئولى الشبكات التليفزيونية إلى مستشارى الرئيس المقربين جدًا منه..

كانت نانسى، فى فترة الأزمات الكبرى التى تحيط بالبيت الأبيض، تتصرف بمفردها، بعيدًا عن زوجها، فكثيرًا ما أمسكت التليفون لتصدر أوامر لتنفيذ رغبات (السيدة الأولى)..

بل كانت تبدى تعليماتها بالتخلص من هذا المساعد أو ذاك بدون تردد.

وربما كان من أهم هذه الأزمات الأزمة التى تعلقت بقضية الرهائن فى إيران، والتى كان عدد من المسئولين فى البيت الأبيض ضالعين فيها، وبعيدًا عن تفصيلات الأزمة؛ ففى حين أحست أن ريجان يتخبط، رأت أن المسئولين وراء إثارة هذا كله أولئك العاملون بالبيت الأبيض..

ضد رجال البوليس :

وعلـى ذلـك، فإبان هذه الأزمة التي عرفت بإيران – جيت وجدت نانسـى نفسـها، وجهًا لوجه، أمام رجال الرئيس..

ولأنهـا لم تجد سـبيلاً آخـر للتعامل معهـم إلا بالتخلص منهم، فإنها سـعت إلى ذلك عبر مساعديها المخلصين (باول لاكسلت، وستيورات سبنسر، ومايكل ديفر).

واسـتيقظت واشـنطن فى أحد الأيام على الشـائعات التي تردد أن نانسي تفعل ما تستطيعه لفصل كبار مسـاعديه من رجال البيت الأبيض، وراحت الصحف تكتب – حينئذ، وفى حملة منظمة – إن رجال الرئيس ليست لديهم كفاءة..

وعملت نانسى بنشاط وجد

وواجهت الشائعات والمخاوف أكثر من ريجان

وزادت الشائعات التى تقلل من كفاءة رجال البيت الأبيض

واحتار ريجان كثيرًا.. ماذا يفعل؟

وقـد عبر عن ذلك المصير الـذى انتهي إليه رجال الرئيس، والموقـف الذى وجد فيه ريجان نفسه، حين قال (هو دنيس توماس):

(إن ريجـان لم يكـن أمامـه أية فرصة بعـد أن قررت نانسـى أسماء من سـيغادرون البيت الأبيض).

فى هذه الفترة، واجهت نانسـى الشـائعات والنظرات المريبة بعدة مواقف؛ إذ راحت تمنع – بالأمر – عقد المؤتمرات الصحفية، وتمنع الصحفيين من توجيه الأسـئلة للرئيس أثناء جلسات التقاط الصور له، الأكثر من هذا، أنها راحت تصدر تعليماتها للمكتب الصحفي بالبيت الأبيض بعزل الرئيس تمامًا عن رجال الصحافة (تصوروا..)

السيدة ريجان :

لم تكـن نانسـى تتوقف عند الحد الـذى لا يجب تخطيه، لقد تدخلت فـى حياة الرئيس: أفـكاره، قراراتـه، الحديث بـدلا منه.. إلى غير ذلـك إلى درجة أصبحت مؤثـرة فى القرارات السياسية العالية..

والقريبون من البيت الأبيض طيلة الثمانينات سوف يدركون تمامًا أن نانسي كانت هى السيدة ريجان التى تتمتع بجدول أعمال سياسـى على مسـتوى عالمى تحاول تحقيقه بكل الطرق، فهى تؤيد الحد من التسـليح بغض النظر عن صلاحية ذلك بالنسـبة للوطن، وهى تعارض إمداد ثوار الكونترا بالسلاح بغض النظر عن رأى ريجان الذى كان يؤيد مدهم بالسلاح..

ومـا يقـال عن الحد من التسـلح ويقال عـن معارضة ثـوار الكونترا يقال عـن كل القرارات الأخرى..

كان ريجان يرى تأييد مبادرة الدفاع الاستراتيجي

والسيدة ريجان ترى العكس

كان ريجان يرى ضرورة إقامة الصلوات في المدارس

والسيدة ريجان ترى العكس

كان ريجان يرى ضرورة معارضة الإجهاض

والسيدة ريجان ترى العكس

ومن أجل ذلك، فإنها كانت تفعل كل شـيء لتحقيق أغراضها، من القضاء على معارضيها، إلى تجاهل الصحفيين.. إلى غير ذلك.

وراء العرش :

وإذا كان مـن المفروض أن تقف نانسـي وراء زوجها كزوجـة واعية حصيفة، فإنها لم تكتف بذلك، بل ولم ترض به؛ إذ أرادت شـيئا واحدًا، أن تحكم بحضور الرئيس وفي غيابه، وتضع أصابعها في كل كبيرة وصغيرة.

لقد كانت تقف وراء العرش الأمريكي..

وتنقل لنا إحدى صحفيات (واشـنطن بوسـت) رأي إحدى زميلات نانسـي أثناء الدراسة - مادلين لينجل - فتقول عبارة دالة:

(لقد رأيت في لينينجراد كرسـي عرش قيصري به فتحة صغيرة من الظهر. ويقال إن شـقيقة القيصر كانت تختفي وراء ظهر الكرسي لتملي على أخيها الصغير ماذا يقول.

والحقيقة أنني أرى نانسي تختبئ وراء عرش ريجان)

كانت نانسي تقف بهذا المفهوم وراء عرش ريجان بالفعل..

وكانـت قراراتهـا مؤثرة إلى درجة أنها ظلت وراء ريجان شـهورا طويلة لتدفع به إلى الطريق الآخر الذي تريده، واسـتطاعت بالفعل أن تعمل على إقناعه بالتخلي عن الخط المتشـدد الذي ينتهجـه إزاء الاتحـاد السـوفيتي.. ويمكن القول باطمئنـان: إنها كانت وراء فكـرة إزالة كل الصواريخ النووية بالاتفاق مع روسيا..

وكمـا فعلت إحدى الزوجات في العالم الثالث لزوجها، في السـبعينات؛ لكي يحصل على جائزة نوبل للسـلام، فيبدو أن نانسـي كانت تضع نصب عينيهـا أن يحصل زوجها على هذه الجائزة..

وكما سعت الزوجات للتأثير على أزواجهن فى أكثر من موضع على القارة الأرضية سعت إلى ذلك نانسى ونجحت إلى حد كبير..

بيد أن هذا التكوين المحدد والطموح الكبير للسيدة الأولى فى البيت الأبيض كان له خطورة بالغة، خاصة، وأن الاستجابة من ريجان كانت استجابة فورية.

ويعود ذلك، فيما يبدو، إلى أن ريجان - كما لاحظ الكثيرون - كان يحب ذلك النوع من النساء الأقوياء المتسلطات، ولذلك، فقد كان معجبًا بكل امرأة حوله تتمتع بهذه الصفة كأمه وزوجته الأولى.

وهذه القوة لا تبدو فى التأثير على قرارات الرئيس بشكل مباشر، وإنما خلال الإيماء له فى المناسبات العامة بما تريد أن يفعل؛ إذ كانت ترسل له إشارات غير ملحوظة (وفعلت ذلك لمساعديه كذلك)، فإذا هو مسوق إلى ما تريد.

كانت شخصية نانسى (أو ماجى) التى تسيطر على كل شيء..

وربما كان هذا هو السبب فى أن ريجان كان معجبًا إعجابًا شديدًا (بماجى) أخرى، وهى، مارجريت تاتشر التى كانوا يسمونها المرأة الحديدية..

هذه هى السيدة التى كانت مسئولة عن (كل) قرارات الرجل الأول فى البيت الأبيض، ووراء كل مواقفه العالمية والمحلية..

هذه هى المرأة التى راحت تهاجم بوش بعنف شديد (حين كان نائبًا للرئيس)، وراحت تتحدى مساعدى الرئيس، وتتجاهل الجمعيات النسائية، وتتدخل فى عديد من القضايا الاجتماعية والسياسية..

ولهذا، لم يكن من المصادفة فى شيء أن تحمل نانسى (مسدسًا)، كان لا يفارق حجرة نومها قط..

وهى شخصية (متسلطة) تغرم بالقبض على كل خيوط المسرح أمامها، حتى تتحكم فى كل شاردة وواردة..

وهى شخصية مثلت فى البيت الأبيض (السيدة ريجان)، ومثلت فى أى بيت آخر (خارج أمريكا) السيدة (فلان) فى أغلب أقطار العالم الثالث بوجه خاص..

إن نماذج نانسى تفرقت فى كل أنحاء العالم.

وذكرتنا بنساء كثيرات كثيرات، بعضهن أدى إلى خراب بلادهن، وبعضهن الآخر، إلى قتل أزواجهن، وبعضهن الثالث إلى مصير محتم ليس هو بالحتم الواعى بالأحداث والعمل لها من منطلق وطنى خالص..

وهنا، نعود إلى السؤال الذى طرحناه من قبل:

هل تذكرنا هذه السيدة بنساء كثيرات أخريات؟

تذكرنا، بالقطع، بكثيرات:

إيلينا، التى راحت تسيطر فى رومانيا على (شاوشيسكو) وتحرك به كل المشاعر الغاضبة فى قلوب الشعب الرومانى..

زينات، التى راحت تسيطر فى بنجلاديش على (إرشاد) وتحرك به كل المشاعر الثائرة لفرض حالة الطوارئ وتزوير الانتخابات..

جيهان، التى راحت تسيطر على بلادها فى صورة (السادات) وتحرك به كل المشاعر الرافضة لهيمنة المرأة على كل شىء فى البلاد.

وليس معنى ذلك، أن كل نســاء الحكام كانوا من هذه النوعية. وإنما وجدت نساء أخريات، أكثــر وعيًــا لأحــداث أوطانهن وتأثيرًا فيها، ويكفــى أن نقول: إن عنت إيلينــا انتهى بها إلى الإعدام، وهزيمة زينات.. ولكن المهم هنا، أن الطموح حين يصبح مســلطًا على المرأة فإنه يكون بمثابة الهلاك الذى يقضى على كل شىء.. وإذا كان لبعض النساء مفهوم واعٍ يؤدى إلى البصيرة فإن للبعض الآخر طموحًا يؤدى بصاحبه (وبمن حوله) إلى الدمار المؤكد..

ويظــل المثال الواضح على طموح المرأة وجموحها (الســت ريجان) التى أصبحت هى المهيمنة على كل شىء فى البيت الأبيض، وراحت تتحكم فى أخطر قرارات أمريكا فى أخطر عقد عاشه العالم – الثمانينات –..

لقد أصبح فى البيت الأبيض (سيدة أمريكا الأولى) فقط.

السيدة التى سعت لتأكيد القوى الأمبريالية التى كانت تتصاعد فى هذا الوقت..

التى سعت لتأكيد النازع العنيف لديها التى يتواءم مع دور العم سام ومن لا يصدق هذا كله، فليعد مرة أخرى إلى أول هذا الفصل..

ويعيد القراءة.

المراجع

المراجع هنا كثيرة ومتناثرة، ويمكن أن نشير فيها إلى مايلى:

- http:// www. okaz.com.sa/okaz/.htm
- http;//www. stop 55. com/vb/88260. html.



الحديدية

مرجريت تاتشر

نعم، تاتشر

ومن لا يصدق يذهب إلى ١٠ داوننج ستريت ليرى:

من يحكم هناك..!!

أو من كان يحكم هناك ؟

إنها تاتشر، بالقطع..

وليس ميجور غير تاتشر

وليس (الرجل الرمادى) كما يسمونه هناك غير حجم متضائل فى ظل (الست)

وليست سياسته التى ينفذها غير سياسة الست

إن تاتشـر التى أخرجت قسرا من زعامة حزب المحافظين فى دورة الاقتراع الأول رفضت أن تعود إلى منزلها..

ورفضت أن تستريح وتكتب مذكراتها

ورفضت الاعتراف والاعتزال والصمت

رفضت تاتشر هذا كله، وراحت تحتفظ بكرسى لها فى مجلس العموم، وتشيع عن نفسها أنها ستعين رئيسًا للمجموعة الأوروبية أو منصبًا كبيرًا فى الأمم المتحدة. أو..

ولا زالت الصحف البريطانية — والعربية — تتحدث عن المرأة الحديدية Madame de fer التى كانت تهيمن على الحزب الحاكم سواء عن سياستها العائلية أم المحلية.

تاتشر مازالت تحكم: فى الغرب والشرق

فى الغرب ما زالت تاتشـر قائمة فى كل الممارسات: كراهية الشرق، تأييد إسرائيل، محاباة المسئولين البريطانيين من اليهود، تأييد الحاخامات..

وفى الشرق، ما زالت الصحف العربية تشيد بتاتشر، المرأة الصلبة التى كانت، سياسة المرأة التى تستمر، الانبهار بما تردده وسائل الإعلام الغربية عنها..

وإذا كان هذا السلوك فى الغرب مفهومًا بحكم التكوين التاريخى والموقف الاستعمارى، فإنه لا يكون مفهومًا عندنا فى الشرق العربى، إننا لا نفتح صحيفة أو مجلة — حتى اليوم — إلا ونجد

أخبار تاتشـر و (التاتشـرية)، بل إن إحدى الصحف خصصت صفحات فى العالم العربى عنها (الحياة)، وبعض المجلات وضعت صورتها الملونة على غلافها (أكتوبر) فضلا عن تعديد مآثرها أكثر من أحد عشر عامًا.

إن الإعجاب بتاتشر، والانبهار بأحداثها وابنها وزوجها ووزرائها، وبيتها فى ضاحية داليتش بجنوب العاصمة البريطانية مازال يملأ صحفنا وإعلامنا..

وإذا كان لتاتشـر الوجه اللامع والسياسـة (التاتشرية) القائمة فى بلادها، فإن ما يهمنا نحن منها هنا: سياستها، موقفها من قضايانا العربية..

إن ما يهمنا منها هذا الوجه السـافر بالعداء، العامر بالغضب والكراهية لنا، وهذه السياسـة التى وَرَّثتها لحزب المحافظين الذى ما يزال يحكم..

وهو ما يدفعنا لنقترب أكثر، ونسأل:

ما هى ملامح الوجه الحقيقى (للست) تاتشر؟

نقصد بالقطع، الوجه الغربى، القبيح..

وسوف نجيب عبر عدة مشاهد متوالية..

كلاكيت ١

فى البدء الاستعمار الإنجليزى..

وانعكس فى شـكل (الهيمنة) على مقدرات العالم العربى فى القرن التاسـع عشر، واستخدم فى هذا كل أدوات العنف سـواء الاحتلال أم السـيطرة الاقتصادية أو السـيطرة إلى البحر.. إلى غير ذلك.

وقـد اتخذت هذه الهيمنة شـكلا ظاهريًا زعم صاحبها حمل رسـالة الرجل الأبيض لتحضير الرجل المتخلف – غير الأبيض – خارج القارة الأوروبية..

وقد اسـتخدم الاستعمار الإنجليزى ترفعه وغطرسـته فى الهيمنة على البلاد العربية سياسيًا واقتصاديًا، وقد مثلت هذه السياسة أسماء عديدة، وحتى ندرك إلى أى مدى كان غلاة المستعمرين مصممـين على النيل من العالم الثالث، سـوف نتذكر معًا كيف جلـس على مقعد رئيس الوزراء الإنجليزى قرابة سبعين وزيرًا منهم (ولنتأملْ قليلاً الأسماء):

– وليام جلادسـتون ١٨٦٨ – ١٨٧٤، ١٨٨٠ – ١٨٨٥ وهو الذى شهد احتلال انجلترا لمصر والسودان..

– ونستون تشرشل ١٩٤٠ – ١٩٤٥، ١٩٥١ – ١٩٥٥.

وهو الذى شـهد انتفاضة الشـعب المصرى والسـودانى ضد الإنجليز، والمؤامرات التى انتهت بنكبـة ١٩٤٨ ومـا أعقبه من الاعتراف بهـذا العضو الدخيل عالميًا، والمؤامـرات ضد ثورة مصر

١٩٥٢ بحلف بغداد، والعدوان الإسرائيلي على الحدود المصرية، والعدوان الثلاثي بعد تأميم قناة السويس.. إلخ.

– انتوني إيدن ١٩٥٥ – ١٩٥٧.

وكلنا نذكر دوره السيئ في شن العدوان الثلاثي على مصر، ثم هاولد ماكيلان ودوجلاس هيوم وهارولد ويسلون وكالاهان.. وهنا، قفزت (الست) تاتشر على كرسي رئيس وزراء إنجلترا قرابة اثني عشر عامًا ١٩٧٩ – ١٩٩٠.

جاء الوجه الأخير، والقبيح، للاستعمار الإنجليزي القديم..

وحين جاءت، كانت أمريكا، قد أحكمت سيطرتها – كاستعمار سياسي واقتصادي – على العالم، فوجدت نفسها تقف في نفس المعسكر ضد العالم القديم كله، ضد العالم الثالث بكل ما فيه من حركات تحرر ونقاط توتر مستمرة..

جاءت تاتشر وليس أمامها غير أن تنافس أمريكا..

ولم يكن التنافس هو مجرد موقف مجرد، وإنما، هو استعادة لحلم إنجليزي قديم من أيام الإمبراطورية التي (كانت) – في يوم ما – لا تغرب عنها الشمس..

وتبلور الموقف العدائي في التعالي على الشعوب والنيل منها..

وقد كان هذا الموقف يحتوي – أساسًا – على الإحساس بالتفوق الغربي على شعوب وأمم (متخلفة) – كما تراها تاتشر..

وكان هذا الموقف يتخذ شكلا (فائق القيمة التاريخية) للفعل الإنجليزي الذي وضع نصب عينيه (المجد) القديم..

وهو مجد كان لا يخرج عن اثنين:

– إما العودة للمتخيل الإمبراطوري القديم

– وإما الجهر بالحلم في شكل عداء ثابت

وجاءت تاتشر لتعبر عن الحلم/ الحاضر بوجهها الجامد وقسوتها المعلنة التي كان يمكن أن نجد أمثلة عديدة لها في بقية دول الشمال، فإذا كانت تاتشر في بريطانيا، فإن كيسنجر وهيج في أمريكا..

الوجه الاستعماري واحد

والمسميات تختلف

ونقترب، أكثر، لنرى، عبر فعل (الست) تاتشر رد الفعل على ما يحدث في عالمنا العربي.. عبر عدة أقنعة..

لنقترب..

كان الموقف من إسرائيل أهم هذه الأقنعة..

وغنى عن الذكر أن هذا القناع الجديد نابع – أساسًا – من نظرة استعمارية قديمة أكدتها – الآن – الأحلام بالسيطرة وإعادة المجد التليد..

كان موقف تاتشر من إسرائيل يتحدد حول (أمن إسرائيل)، وفى فترات الصراع المصيرى بين العرب وإسرائيل كان الموقف يأخذ شكلاً منحازًا سافرًا ووقحًا، بدون تردد..

كان موقف تاتشر دائمًا يتلخص حول كيفية «الحفاظ على أمن دولة إسرائيل وتأمين استمرارها».

فحين كانت تاتشر تلتقى بشيمون بيريز – على سبيل المثال – لم تكن الصحف العربية عندنا، تنقل لنا، ما كان يحدث دائمًا بين رئيسة الوزراء الإنجليزية والزعيم الإسرائيلى..

كان يحدث الانحياز الصريح، وبشكل لم تكن تاتشر لتخفيه قط، ومن ذلك أنه حينما التقى زعيم حزب العمل الإسرائيلى برئيسة الوزراء الإنجليزية – تحديدًا فى ٢٢ يناير ١٩٨٦ – وجهت تاتشر إليه الدعوة فى مقر إقامتها «بداوننج ستريت» وكان معظم الحاضرين من وزرائها اليهود ما عدا وزير خارجيتها – آنذاك – سير يجفيرى هاو، وهم، سير كيث جوزيف نايجل لونسون، لوردينج، مالكوم ريفكند، ليون بريتين، وعلى مائدة العشاء تلا الحاخام جاكوفيست، صلاة المائدة، ولم تكتف تاتشر بتلك الصلاة، بل قالت «وطلبت من الأسقف اليهودى تلاوة صلاة أخرى يالها من ليلة تعيدة» (المسلمون ٢١ ديسمبر ١٩٩٠).

وكان يكفى أن نتنبه، قليلاً إلى زيارات تاتشر إلى الشرق، لندرك أنها لم تكن لتهتم بدولة، فى العالم كله، بمثل ما اهتمت إسرائيل (بالست) التى لم تزر دولة فى المنطقة العربية إلا دولة إسرائيل، والإشادة بها كثيرًا..

لم تكن إسرائيل – عندها – إحدى دول المنطقة.. كانت دولة غربية.. وكانت سياسة (الست) تبعًا لذلك سياسة إسرائيلية..

وهو ما بدا أكثر وضوحًا فى سياستها الداخلية كذلك..

إن مراجعة الصحف الإنجليزية فى هذه الفترة التى حكمت فيها تاتشر فعليًا ترينا كيف أنها وقفت – صراحة وبدون مواربة – إلى جانب إسرائيل، ويتمثل هذا فى الاهتمام بالشخصيات اليهودية التى تتولى مناصب حيوية فى بريطانيا..

إن تاتشر أسندت وزارة التربية فى حكومة المحافظين الثانية (١٩٨٣) إلى الزعيم الخفى والأب الروحى لتاتشر نفسها – كيث جوزيف اليهودى – وهذا الرجل استطاع من خلالها

تكريس كل جهوده لنشر الثقافة اليهودية، ثم نظر كيث إلى وزارة الخارجية، فوجد فيها حوالى (١٥) دبلوماسيًّا مستعربًا ممن يجيدون شيئًا من اللغة العربية لتخصصهم فى دراسة ثقافتها وأدبها؛ مما حدا البعض منهم للتعاطف مع القضايا العربية كالذى حدث فى مواقف ديفيد ميللر، وويليام ويلد جريف، اللذين كان نصيبهما فيما بعد وزارة الصحة، فما كان من كيث إلا أن رشح يهوديًّا آخر لمنصب وزير دولة للشئون الخارجية، فكان اليهودى الأسكتلندى مالكوم ريفكن وهو ابن لعمود المعبد اليهودى الأرثوذكسى اليجا؛ وهذا ما جعل من بين اهتمامات ريفكن المتعددة والمتصلة بجذوره الدينية اهتمامه بقضية مثل قضية الفلاشا، اليهود الأثيوبيين السود..

ولا نريد أن نقول الآن إن اليهود الفلاشا كانوا من أهم قضايا تاتشر؛ إذ ساعدت كثيرًا فى نقل عدد كبير منهم المرة الأولى، وهو ما سار على دربه حكومة تاتشر الأخيرة (حكومة ميجور) حين لعبت دورًا مشابهًا للدور الأول للمساهمة فى نقل الفلاشا لإسرائيل فى إبان الحرب الأهلية فى أثيوبيا تحت غطاء رعاية المفاوضات بين المعارضة الأثيوبية وبقايا نظام منجستو..

الأكثر من هذا أن تاتشر، حتى وهى تحيا - جسمانيًّا - فى بيتها فى جنوب لندن، تهتم بهذه القضية دون غيرها فتتوالى التصريحات بعد هجرة الفلاشا منها لتشير بكل فرح لما حدث، بل وحين التقت بوفد من قيادة اتحاد المنظمات اليهودية وتحدثت عن عداء السامية فى الاتحاد السوفيتى! (وعلامة التعجب هذه من وضعنا)، وهى تعتبر قانون الهجرة الذى صدر أخيرًا عن البرلمان السوفيتى بعد أن أقره «إنجازًا كبيرًا فى سير التحولات الديموقراطية»! (وعلامة التعجب من وضعنا..).

لم أنقل أن تاتشر مازالت فى كرسى الحكم..

لنأخذ مثالاً أخيرًا قبل أن نصل إلى قناع آخر.. نحن الآن فى نهاية حكم (الست) - ديسمبر ١٩٨٩ - فإذا بنا نراها تمنح أحد حاخامات اليهود لقب لورد فيما كانت التقاليد تفرض منح هذا اللقب لأحد أساقفة الكنيسة الإنجليزية هناك.. هو (JakobBorist).

وهذه هى الفترة التى كتب فى الصحف الإنجليزية عن تعاطف تاتشر مع الشخصيات اليهودية؛ مما دفعها إلى منحهم لمناصب عديدة على حساب مواطنيها من الإنجليز، وتذكر هذه الصحف أن المرأة الوحيدة التى استطاعت أن تجد لها مكانًا فى حكومة تاتشر كانت يهودية - أدونيا كورى - والتى شغلت منصب وزارة الصحة..

هل هذا معقول؟

كلاكيت ٢

وهنا نصل إلى موقف آخر..

الوجه الجديد للست فى أزمة الخليج

وهو موقف يقوم أساسًــا على تأييد مركز الغرب الأول الآن (أمريكا). فى التحالف المعلن بين العديد من الدول الغربية (الاستعمارية قديمًا..) والولايات المتحدة لصنع السلام الأمريكى..

أو السلام على الطريقة الأمريكية..

وهــذا القناع (التاتشــرى) يقوم علــى منطق أكثر إقناعًا فى الظاهر بينما هو اســتعمارى عريق فى الواقع..

فــى الظاهــر يقوم على تأييد المركز – أمريكا – وتأييد المركز هنا يعنى تأييد الطرف التابع له فى «المنظومة» الغربية..

فــإذا كان الموقــف الأمريكى فى أزمة الخليج يقوم على أن أمريــكا تكون هى الطرف المهيمن فى الأزمة، فإن بريطانيا (العظمى) – على اعتبار ما ســيكون – تظل أهم لوازم هذا الطرف على الإطلاق بهدف إستعادة بعض (ما كان)..

وهذا الموقف كان واضحًا قبل غزو العراق للكويت.. وبعدها.. فمنذ البداية بدت تاتشر أكثر دول (التحالف) مشاركة للأمريكيين وأكثر الدول تحيزًا لموقف العم سام بدون تردد أو مراجعة (كما فعل الجانب الفرنسى، على الأقل، كنوع من المناورة)، وهذا الموقف لم يتغير قط فيما بعد..

حتى بعد خروج تاتشر..

وفى فترة احتدام الأزمة، كان ميجور (رجل الســت) يعبر بشــكل أو بآخر عن أفكار بوش، أو يتحدث عنه من آن إلى آخر..

إنه توزيع الأدوار بالطريقة التاتشرية

وحين بدا يلوح فى الجو طيف التفاوض – لأكثر من مرة – كان ميجور متشددًا أكثر من بوش، ومرددًا: ضرورة الهجوم ومعاملة العراق بقسوة وبشدة..

كان ميجور أمريكيًا أكثر من الأمريكيين أنفسهم..

وهذا الموقف من ميجور، كان امتدادًا لموقف سابق لتاتشر، لم تتوقف تاتشر – من قبل – عن الهجوم العنيف على صدام حسين..

لم تتوان عن التحريض على النظام العراقى الصفيق..

لم تتراجع قيد أنملة عن عرض كل التســهيلات على الأمريكيين الذين يزمعون الهجوم على (طاغية) بغداد..

وبغض النظر عن موقف صدام حسين (ليس هنا مجال لتقييمه)، فقد بدا الموقف التاتشرى أكثر عدوانية من موقف الشيخ جار نفسه..

وربما يفسر ذلك أنه حين خرجت تاتشر من الحكم خرجت الصحف العراقية ووسائل الإعلام فى بغداد لتتحدث عن سقوط المرأة (الشمطاء)، وعن الموقف العراقى الذى أسهم فى ذلك..

ويمكن أن نضيف إلى ذلك، أن تاتشر لم تخرج من مجلس الوزراء - بالفعل - إلا بعد تهيئة المناخ لخليفتها - صانع القرار الإنجليزى - للوقوف ضد العرب..

لقد تركت خلفها فلسفة (تاتشرية) تواصل سياسة التشدد - على رغم أنه كان يلوح فى الأفق رايــات التفاوض والمرونة - وكان يتم ذلـك بالتصريحات العنيفة إلى درجة الصفاقة، أو - حتى بعـد أن رحلت - بالأبناء علــى وزير الخارجية الإنجليزى دوجلاس هيرد والدفاع توم كينج فى التعديل الوزارى الأخير..

وقـد كان ميجور نفســه، أكثر المرشـحين الثلاثــة - حينئذ - تأييدًا لتاتشـر، وقربًا منها، فشخصيته التابعة يمكن أن تكون أكثر عوامل استقرار واستمرار هذه السياسة التى اتبعتها.

والمعروف، أن ميجو، كان قبل أن يقف فى الظل التاتشــرى - كمســئول - من أكثر المقربين منهــا، الخاضعين لهــا خضوعًا خالصًا؛ إذ كان يتردد على مجالســها الخاصة، حتى إنه عين - من خلالها - ولأول مرة وزيرًا للخزانة فى عام ١٩٧٩، ويجمع المراقبون السياسيون فى لندن، على أن ميجور «يتمتع بصفات مشــابهة لصفات تاتشــر الاجتماعية والعائلية، كلاهما لا ينتمى إلى الطبقة الأرستقراطية»

تاتشر كانت - فى الأصل - ابنة بقال

وميجور - كان فى الأصل - ابن لاعب سيرك

تاتشر تتخرج فى كلية الصيدلة لتعمل فى وظيفة..

وميجور يعمل موظفًا

وتدرجا معًا حتى أصبحا أعضاء بمجلس العموم..

وقد كان أبلغ دليل على التقاء فكرهما، أن تاتشــر كانت قد أعلنت أنها ســوف تزور القوات البريطانيــة فى الخليج، وقــد حقق ميجور رغبتها حين تولى هو المســئولية، فقام بالفعل بزيارة الجنود الإنجليز، هناك، فى أرض العرب..

وحتــى بعد هزيمة العراق وعودتها إلى القرون الوســطى، فقد كان ظل (الســت) مهيمنًا على تصريحــات ميجور: إن ضرورة الإبقاء على العــراق، هناك، فى خراب الهزيمة. وكان يتم ذلك - على حد تعبير هشام شرابى فى عدد الحياة ٢٩ يناير ١٩٩١ - فى لغة فوقية إملائية فرضية متعالية تتعمد الإثارة والإذلال. وهى لغة تأتى عفوية على اعتبار أنها لغة - القوى - المســيطر، الذى يتصرف عادة كأن العالم خلق لخدمته.

إن تاتشــر، على رغم أنها تقيم الآن فى إحدى ضواحى لندن الجنوبية، فهى ما زالت هنا، فــى قلــب العاصمة البريطانية، وتحديدًا، فى كرســى رئيس الوزراء، صانــع القرار الإنجليزى (جلادستون. وتشرشل.. وإيدن..).

تاتشر هنا، نعم.. تحصل على الأوسمة وتبيع مذكراتها وتدلى بأفكارها، وتنتظر.

المراجع

يلاحظ أن المراجع الكثيرة عن تاتشر ترسم صورة صحيحة لهذه المرأة الحديدية كأن توصف بالمرأة الحديدية وهذا كان له بواعث بالفعل فى الشخصية، وهنا نلاحظ أن هذه الصفة كانت تلازمها لأنها كانت قوية شديدة وتتخذ قرارات كبيرة وتتحمل تبعاتها وتواجه الظروف بقوة تحمل ربما تفوق فيها الكثير من الرجال حيث إنه في منتصف شهر مارس عام ١٩٨٣م قبل ٢٢عاماً كانت رئيسة وزراء بريطانيا مارجريت تاتشر قد وصلت إلى مقر إقامتها فى مدينة برايتون الساحلية جنوب انجلترا استعدادا لمؤتمر دولى فى اليوم التالى. وما أن استقرت فى الفندق المعد لإقامتها إلا وحدث انفجار ضخم فى نفس الفندق قامت به جماعة من الإرهابيين. فما كان من تاتشر إلا أن انتقلت إلى جناح آخر فى الفندق لم تصله آثار الانفجار تحمل أوراقها ومذكراتها وأكملت فيه بقية المساء لتقف فى صباح اليوم التالى وكما هو محدد سابقاً فى تمام الساعة التاسعة أمام جموع الحاضرين فى المكان المعد للمؤتمر. وقفت وهى تقول:

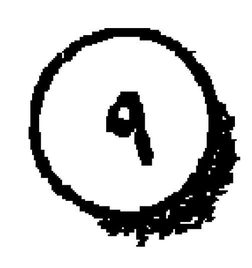
– ها آنذا أقف أمامكم فى نفس اليوم وفى نفس الساعة المحددة للمؤتمر لأقول للإرهابيين إنهم لن يستطيعوا أن يمنعونا من متابعة مسيرتنا نحو البناء والتشييد ! ! :

انظر على سبيل المثال :

http://www.alshamsi.net/man/mcl/margrait_tatsher.html

وتعيننا الكثير من المراجع الرقمية هنا من أمثال :

- http://www.alrai.com/page
- http://www.stop55.com
- http://www.iraqcp.org.htm
- http://www.aljazeera.net/News/archive/archive?
- http://www.almotamar.net/news/57913.htm



النارية

أديث كريسون

كثيرا ما توصف المرأة بأنها عاطفية، وأنها – بالمقارنة إلى الرجل – انفعالية لا تحسن التحكم فى مشاعرها إلى حد بعيد.

فإذا أضفنا إلى هذا الوصف الذى أطلقه الفرنسيون على رئيسة وزرائهم بأنها المرأة النارية Madame de fer لوجدنا أنفسنا أمام هذه المرأة التى استقالت أخيرًا من رئاسة الوزارة الفرنسية بعد أقل من عام (١ مايو ٩١ – ٢ أبريل ١٩٩٢) ولم يمضِ على وجودها كرئيسة للوزراء أكثر من عشرة أشهر ونصف الشهر.

أديث كريسون على العكس من مرجريت تاتشر.

فإذا كانت المرأة الحديدية قد نالت احترام زملائها واستطاعت فى الغالب التحكم فى مشاعرها، فإن كريسون أثبتت – فى النظرة العامة – أنها تأثرت أكثر لتكوينها الأنثوى؛ وبدت غرائزها المسيطرة على كل تصرفاتها، وهى صفات تتعارض مع صفات من يتحمل مسئولية رئيس للوزراء فى دولة مثل فرنسا.

وهنا تثار قضية هامة، هى، إذا كانت المرأة هى أسيرة مشاعرها فى حياتها الخاصة، فهى هى كذلك، حين تتحمل مسئولية سياسية؟

هل المرأة تختلف عن رئيسة الوزراء؟

سوف نتوقف هنا عند الوجه الأول للمرأة: الأنثى لنرى إلى أى حد عبرت كريسون عن هذا التكوين، قبل أن نصل إلى المرأة الأخرى: المسئولة.

أولاً: المرأة

ابحث عن المرأة

إن محاولة فهم السياسة الفرنسية إبان تولى كريسون رئيسة للوزراء تدفعنا إلى تصديق الحكمة التى تقول: ابحث عن المرأة، لقد كانت علاقة كريسون بزملائها الوزراء تتسم بالضعف الشديد، إنها فى علاقتها بمواقفهم وسياستهم عنيفة صريحة، لا تعترف بأنصاف الحلول، لا تعرف التعبير الدبلوماسى فى التعامل مع الأفراد أيًا كانت مكانتهم..

إنهــا تعلــن مــن آن إلى آخر أنه لا يجــب أن يجاملها أحد قط لكونها امرأة، لأنها مســئولة مســئولية سياسية، وحين تتخذ قرارات سياســية فيتعرض لها البعض من الرجال فإنها تنقلب عليهم بعنف، ذاكرة أنهم يهاجمونها لكونها امرأة وليس لكونها مســئولة، وقد هاجمها بالفعل عــدد كبير من الرجال ســواء من رجال الأعمــال أم من بين الجبهة العريضــة المعارضة للحزب الاشتراكى الذى تنتمى إليه، أم – حتى – من بين الحزب الذى تنتمى إليه، بل من بين الوزراء فى الوزارة التى تنتمى إليها.

لقد ســلط عليها التليفزيون ســهام نقده إلى درجة أنها هوجمت بعنف من جان أمادو مخرج أحد البرامج التليفزيونية الناجحة، بل إن شارل باسكوا – وهو زعيم يمينى هاجمها بعنف قائلا عنها: كريسون تساوى صفرًا. وصفرا مثلثا.

ولم تتردد طيلة فترة حكمها بأن تختلف مع الجميع، وتبدو استفزازية إلى حد بعيد، وراحت تســتخدم مع وزير مرموق مثل جاك شيراك من اليمين المحافظ أسلوب سخرية وتهكم أثارت به الكثير مما حولها.

ويبدو أن كريســون كانت تدرك أن الأنثى بداخلها كانت أقوى من أى شــىء آخر، ومن هنا فإنهــا حرصت على أن ترتدى دائمًا أفخم الثيــاب، بل لم ترتدِ إلا ملابس ثمينة من بيت أزياء ديــور وتورانت، وكثيرا ما كانت تتجول – منــذ كانت وزيرة للزراعة – بالكعب العالى، وكانت تختــار دائمًا مكياجًا صارخًــا وعطرًا فواحًا إلى حد بعيد، وحين يعرض عليها أحد مســاعديها الانتقادات المستمرة ضدها فى الصحف كانت تصيح فى غضب:

(إن ما يريدونه هو الذّكر.. حسنا، فليكن لهم ما يشاءون.. سأتصرف كذكر وليس كأنثى..)

ويبدو أن عقدة (الذكر) كانت تســيطر على الســيدة كريســون، فكثيرًا ما كانت تخلق مشاكل معهم، حتى إنها ذكرت فى أكثر من لقاء معها أنها تمنت منذ كانت طفلة أن تكون رجلا، وفى محاولــة لتكــون الأنثى رجلا، فى حين أن تكوينها الفيزيولوجي يحول دون ذلك، فإنها راحت تؤكد أن الأنثى يمكنها الاستغناء تمامًا عن الرجل، فبرغم عبقرية الرجل – خاصة أن التاريخ لم يشــهد عبقريات نســائية فى الموسيقى أو الفن التشكيلى خاصة مثل الرجل – فإن السيدة يمكن أن تعيش بدون رجل، ولكن كريسون تضيف هنا: (.. إلا فى الحياة الخاصة)..

كانت كريســون تدرك أن الفارق بين النوعين: الذكر والأنثى، هو المســئول الأول فى طريقة وجودها وتعلمها مع من حولها، فى حين حاولت أن تهاجم الرجال بعنف – انطلاقًا من العقدة النسائية – فإنها لم تستطع أن تتخلى عن طبيعتها كامرأة..

امرأة عاطفية لا تستطيع أن تتحكم كثيرًا فى انفعالاتها

وإذا كان ذلك قد ظهر واضحًا تمامًا فى علاقاتها الداخلية بمجتمع الرجال والقضايا التى تعرضت لها، فقد بدا أكثر وضوحًا فى علاقاتها الخارجية بالشعوب حولها، إن كريسون لم تستطع أن تكبح جماح نفسها فى إبداء الرأى فى قضايا سياسية كثيرة خاصة بالنسبة لشعوب الشرق أو حتى بالنسبة للشعوب الغربية نفسها.

النمل اليابانى :

لم تستطع كريسون التخلى عن تكوينها كامرأة فى علاقتها باليابانيين بوجه خاص، لقد هاجمت اليابانيين بعنف شديد، وهذا الموقف العنيف من اليابان له جذور بعيدة فى تكوينها حتى قبل أن تتولى الوزارة، كانت تدرك أن اليابان قوة اقتصادية عاتية، وأنها تعمل على تدمير مناطق وقطاعات عديدة من الصناعات الفرنسية والأوربية كآلات التصوير والتليفزيونات وأجهزة التسجيل والعربات.. إلى غير ذلك، وأن اليابان التى توشك على تدمير الاقتصاد الغربى كله يجب أن تقلع عن ذلك؛ إذ إن الغرب لن يسمح بذلك أبدًا.

ومن هنا، حين وقفت كريسون أمام شبكة التليفزيون الأمريكى أى. بى. سى قالت بالحرف الواحد، وباندفاع أنثوى يعوزه كثيرًا من الحرص:

(إن اليابانيين يعملون كالنمل الذى خرج محاولاً غزو أوروبا اقتصاديًّا.. إنهم يعملون كالنمل.. لا نستطيع أن نعيش كذا فى بيوت ضيقة. ونمضى ساعتين كل يوم للذهاب إلى العمل والعودة منه.. إننا نرغب أن نعيش كبشر كما كنا دائمًا وليس العمل فقط وإنجاب الأطفال كما يفعل الآسيويون واليابانيون الذين هم أقل من مستوى الإنسان الأبيض).

وتصمت كريسون قليلاً قبل أن تقول بانفعال أكثر:

(إن أوربا ستكون حتمًا الفريسة المقبلة لليابان)

أجرى هذا الحديث فى ١٧ يوليو ١٩٩١ وطيلة الأشهر التالية واجهت كريسون هجومًا عنيفًا من الجميع، ليس مواطنيها فقط، وإنما من اليابانيين أيضًا الذين غضبوا بعنف على المستوى السياسى والشعبى..

إعدام كريسون :

على المستوى الشعبى قام اليابانيون بالمظاهرات فى شوارع طوكيو وخاصة العمال اليابانيين الذين قاموا بهذه المظاهرات مع غيرهم ضد كريسون، فشهدت الميادين اليابانية جماعات من اليابانيين الغاضبين يصنعون دمية لرئيسة الوزراء ثم يقطعون رأسها بالسيف غضبًا مما قالته، تعبيرًا عن إعدامها لدى الرأى العام فى اليابان ولم يلبث أن غضب البرلمان اليابانى.

غـير أن الغضـب الأول جاء من ممثـل الحكومة اليابانيـة الذى راح يقـول بغضب وبعنف شديدين:

(الأفضل أن يكون المرء نملة على أن يكون صرصورًا).

وكان معنى قصة النملة والصرصور أن تصبح كريسون صرصورًا.. كيف؟

كان اليابانيون يريدون أن يذكروا بقصة القاص اليونانى القديم: من أن النملة تسـتطيع - إذا عملت - أن تحقق نجاحًا أكثر من الصرصور إذا نام، فالنملة نشيطة تخزن غذاءها بينما لا يفعل الصرصور غير أن يسـكن ولا يتحرك قط لكى يتمتع بأزيز صوته الشـجى، ومن هنا، فإذا جاء الشـتاء يكون النمل قد أعد العدة أثناء الصيف، فى حين أن الصرصور لم يكن قد فعل شـيئًا، فينتظر النمل حياة سعيدة فى حين ينتظر الصرصور حياة يشوبها الجوع وينهيها الموت..

ولا تلبـث أن تعم شـوارع طوكيو - مرة أخرى - المظاهرات التـى لا تكتفى هذه المرة بإعدام الدمية (كريسـون) فقط، وإنما يمثلون بها، قبل سحلها فى الطريق العام، ويطالبوا فى هتافاتهم أن تعتذر كريسون للحكومة اليابانية.. وبالفعل، استدعت وزارة الخارجية الفرنسية سفير فرنسا فى طوكيو لتقديم إيضاحات حول تصريحات رئيسة الوزارة الفرنسية بشأن اليابان..

الشذوذ الغربى:

وإذا كان الشـرق لم يسلم من «سلاطة لسان» كريسـون (أطلقت هذا التعبير النساء الفرنسيات عليها).. فإن الغرب لم يسلم أيضًا من ذلك..

كان هـذا حـين صرحت كريسـون - ولم يمض على رئاسـتها للوزراء أشـهر - بأن الرجال الغربيين لديهم شذوذ جنسى، كيف؟ قالت بصراحة شديدة:

(إن ربع الرجال البريطانيين والأمريكيين، هم من الشـاذين جنسيًا، وحتى الرجال الألمانيين والرجال الفرنسيين؟

هكذا سألت صحيفة (الأوبزرفر البريطانية) فأجابت كريسون بسرعة:

- لا، أستثنى الرجال الفرنسيين.

وراحـت كريسـون تعيد تفسـير مـا قالته مـرة أخرى (لمحطة آى بى سـى فـى منتصف يوليو ٩١):

- إن جذور الشذوذ الجنسى فى التقاليد الأنجلوسكسونية عميقة وليس الأمر كذلك فى التقاليد اللاتينية.

وفـى الأيـام التالية ثارت ثائرة الأمريكيـين والألمان، غير أن الإنجليز كانـوا أكثر غضبًا من غيرهم، لقد أدركوا أن الرئيسـة الفرنسية للوزراء ليسـت لها اهتمامات كبيرة بالوحدة الأوروبية

وإن كانت لا ترفض ذلك، غير أن انتماءها القومى لفرنسا كان يفوق أى انتماء آخر، غير أن هذه الإهانة لم تجد من يفسرها هكذا على النحو السياسى، وإنما وجدت من ينال من أخلاق كريسون نفسها، راحت الصحف تقول:

– هذا لا يليق بكريسون.. إنه كلام رخيص

– الرجل الإنجليزى مخنث، والفرنسى لا، غير أن أكثر التعبيرات عنفًا جاءت من صحيفة (صن) التى تساءلت بقسوة:

– وهل كانت تجارب كريسون مع الرجال البريطانيين هى التى أوحت إليها بمثل هذا الاستنتاج.

وقد دفع هذا كله بالرئيس ميتران الذى يحمل مسئولية كاملة لمجىء كريسون إلى التدخل وراح ينفى عن الشرقيين أو الغربيين مثل هذه الاتهامات التى وزعتها كريسون على الجميع، خاصة اليابانيين، لقد أكد فى نفس الشهر الذى هاجمت فيه كريسون اليابانيين – ٢١ يونيو – أن تصريحات رئيسة الوزراء ليس القصد منها الإساءة إلى اليابانيين وإنما هى تشير إلى قوتهم وطموحهم..

كان على الدبلوماسية الفرنسية أن تسرع إلى رئيسة الوزراء، وتحاول تهدئتها وإثناءها عن سياستها المشاكسة دون جدوى..

بداية السقوط:

ومع أن كريسون ليست وحدها المسئولة عن المصير السيئ الذى وجدت فرنسا نفسها فيه؛ إذ كانت تعانى داخليًا من البطالة وأزمة الأجانب الموجودين فى فرنسا وخاصة العرب منهم، كما عانت فرنسا من ترددها خاصة حين تم الانقلاب على جورباتشوف فلم تحدد موقفًا واضحًا، كذلك، فى الفترة الأولى من حرب الخليج.. وما إلى ذلك.. غير أن تصريحات كريسون المثيرة وهجومها المستمر على الجميع حولها حتى أعضاء من الحزب الذى تنتمى إليه كان واضحًا أكثر من أى شىء آخر..

كانت صورة كريسون نارية المزاج المشاكسة أكثر من صورتها التى سمعت بها وخصوصًا فى الفترة الأخيرة من حكمها وإصلاح ما أفسدته..

كانت قد أدركت أن انفعالها المستمر وتصريحاتها العنيفة توشك أن تكلفها كرسى الوزراء، ومن هنا، فقد راحت تعيد النظر فى سياستها ومواقفها، فراحت تهادن وسائل الإعلام التى نالت منها كثيرًا، وتتأنى أكثر قبل أن تنطلق الصيحات العالية التى تنتقد بها هذا أو ذاك، بل راحت تستمع إلى نصائح الصحف لها بصمت كيلا ترتكب فى ردها أخطاء أخرى..

غير أن ذلك كله لم ينقذها من السقوط..

فالحزب الاشـتراكى الذى انتمت إليه كان قد وصل إلى أقصى هزيمة له حين لم يحصل فى الجولة الأخيرة للانتخابات المحلية على أكثر من (١٨ فى المائة من الأصوات) فى حين حصلت أحزاب اليمين المعارضة على نسبة أكثر من ذلك بكثير، بل إنه فى استطلاع للرأى أجرته وكالة فرنسـية قبل سـقوط كريسون بقرابة عشـرة أيام جاءت النتائج أن غالبية كثيرة تصل إلى ٦٠ فى المائة تطالب بتغيير كريسون.

وعلى ذلك، بدا واضحًا أن الرئيس ميتران الذى جاء بكريسون لابد أن يعلن عن ذهابها..

لقد أصبحت المرأة وحدها فجأة..

لم ينفعهـا تراجعهـا الأخير حين حاولت اسـترضاء الجميع بعد أن خسـرت الجميع، فإذا بالجميع يطالبون باستقالتها، كانت المرأة هى المسئولة عن سقوطها السياسى، لقد أطلقت الأنثى للسانها العنان فانتصرت على رئيسة الوزراء..

لقد خسرت رئاسة الوزراء لكنها لم تخسر كونها امرأة.. لقد تركت السياسة، وعادت لتنكمش على جنسها الأنثوى، وتنتظر أن يطلق عليها الرئيس ميتران رصاصة الرحمة.. وأطلقها..

مع هذا، يظهر سؤال: هل أقيلت كريسون حقًا لكونها أنثى؟ بمعنى: هل ردود أفعالها تجاه قضايا سياسـية كانت أنثوية خالصة لا ترتبط بالخط السياسـى العام لفرنسـا..؟ أو أن السياسى لا ينفصل عن الذاتى؟ أو السياسى قبل الذاتى؟

ثانيًا: الوزيرة

أديث كريسون التى أقيلت كرئيسة وزراء فرنسا تترك وراءها علامة تعجب لا تلبث أن تتحول إلى سؤال غامض:

هل أقيلت لكونها امرأة مشاكسـة أطلق عليها اسـم «المرأة النارية»؟ أو لكونها رئيسـة وزراء غير موفقة؟

هل السبب هو تكوين الأنثى أم أخطاء السياسى؟

هـذا كلام أثير كثيرًا ويحتاج إلى شـرح، فلنشـرح، ولنطرح نموذج الوجـه القبيح فى الغرب المعاصر..

فـى الكتاب الوحيـد الذى تركته، والذى كتبته قبل تولى رئاسـة الوزارة، سـوف نجد هذا التمرد على واقعها لكن، أيضًا، هذا الوعى بالواقع السياسى الذى يمر به المجتمع الفرنسى فى آن واحد:

يؤكد كتاب (مع الشمس) أنها تأثرت كثيرًا بالميل السياسى لأبيها، فقد كان الأب ينتمى إلى اليسـار، فراحت تميل إلى الفكر الاشـتراكى وتعبر عنه بالموقف أو التوجه العملى، فى حين أن

تمردها بدأ مع أمها فى المواقف العادية، وهى تعبر عن تكوينها المبكر حين تقول: «أوصتنى أمى لعمل كذا وعملت العكس».

حين طلبت الأم من ابنتها أن تتزوج، ابتعدت هذه الأخيرة عنها لتنغمس - أكثر - فى العمل السياسى، تنتقل من بلد إلى آخر، تمارس الفكر السياسى وتغرق فى التنظيم، فى هذا الوقت تلتقى بالرجل الذى تتزوج منه.

وهذا يشير إلى أمر هام، هو أن ارتباطها الأساسى كان بالأب أكثر منه بالأم، ولا يخفى ذلك عقدة (إليكترا)، بقدر ما يخفى اعتدادًا فى الرأى والاستقلال والطموح إلى تحقيق الحلم السياسى والعمل له.

أضف إلى هذا أن تربيتها لم تخل من ترف، وعلى رغم ذلك، فإنها راحت تميل إلى اليسار، ولم تتخل عن هذا الميل، ومن هذا المنطلق، راحت تنتزع منصب رئيس بلدية مدينة «شاتلرو» ووصلت بعدها إلى منصب الوزيرة، وزيرة الزراعة فى إبان حكم الرئيس ميتران.

وهذا كله يعنى، أن كريسون، وإن لم تستطع أن تتخلص من تكوينها الأنثوى، وهى طبيعة الأشياء، فإنها أخضعت تكوينها لطموحها، فأصبحت وزيرة، وهو ما ينم عن شخصية قوية، وهو ما يشير إلى نضج الوعى السياسى فى إطار الواقع وليس فى إطار التكوين البيولوجى وحده.

وعلى هذا النحو، نكون قد وصلنا إلى نتيجة هامة، هى، أنه لا يمكن أن يكون لتكوينها النسائى دور كبير فى تصريحاتها العلنية؛ ففى الظاهر تبدو هذه التصريحات عفوية، تمليها الطبيعة النسائية، غير أنه، فى الواقع، فإن (المسئولة) فى وزيرة لا يمكن أن تخضع لتكوين ذاتى أكثر منه رسمى، وهو ما يصلح كمدخل لفهم مواقفها فى إطار سياسى عام وليس ذاتيًا قط.

وسوف لا نستعجل الأمر أكثر من ذلك، وإنما سوف نرى خلال توليها مسئولية الوزارة، كيف أن تصريحاتها أو مواقفها لم ترتبط بالتكوين الفيزيقى أكثر من ارتباطها بالاستراتيجية العليا للدولة.

وفى هذا الإطار، سوف يكون واضحًا لنا أن موقفها من العرب إبان أزمة الخليج إنما لا ينفصل عن موقفها من الآخرين سواء أكانوا من اليابانيين أم الألمان أو الأمريكيين أو غيرهم من الغربيين.

لقد بدت السياسة الفرنسية من العرب حينئذ - ومنذ البداية - تميل إلى بغداد ولم يلبث الموقف أن اتسم بالتردد الشديد، وانتهى إلى الانضمام الصريح للأمريكيين قادة التحالف ضد العراق، ومراجعة أحداث هذه الفترة يمنحنا قناعة مؤداها، أن قصر «الإليزيه» تحول منذ بدايات يناير بوجه خاص إلى الجانب الغربى فى وضوح شديد، وهو موقف اتسم بالبرجماتية الذاتية أكثر منه للمبادئ العامة.

وباستعادة عديد من مواقف فرنسا الرسمية سوف نتأكد أن موقفها من اليابانيين – فى عهد كريسون – لا يبتعد كثيرًا عن موقفها من العرب. ولنتوقف أكثر عند الموقف من اليابان قبل أن نعود إلى العرب..

إن طبيعة رئيسة الوزراء النارية لم تفارق موقف السياسة الفرنسية فى النظر إلى الشرق كله؛ إذ لم تستطع أن تخفى قلقها الشديد من الصناعة اليابانية التى هددت الاقتصاد الفرنسى كله، وخاصة فى مجال السيارات وآلات التصوير والتليفزيونات وأجهزة التسجيل.. إلى غير ذلك، وقارئ الكتاب (البيان) «اليابان يمكنها أن تقول لا» يستطيع أن يلحظ فيه نبرة التحدى من رجال الأعمال والمسئولين اليابانيين للغرب كله وليس الولايات المتحدة الأمريكية وحدها [صدر لأول مرة عام ١٩٨٩ لاكيوموريتا وشنتاروا يشيارا رئيس مجلس إدارة ومدير عام شركة «سونى»، وروائى يابانى سياسى ومعروف ونشر هذا الكتاب (البيان) فى العالم الغربى كله بسرعة البرق..] وتعج الصحف والكتب اليابانية من سنوات حول الخطر اليابانى، وبدأ مصطلح مثل (الاستعمار اليابانى) يتردد فى الغرب كثيرًا، وقد لاحظت صحيفة مثل «هيرالدتريبيون» فى ٢/ ٥/ ١٩٩١ أن عبارة: (ضرائب بدون اشتراك فى الحرب) حجة تتردد فى اليابان ترد بها على المطالب الأمريكية بتقديم المزيد والمزيد من الأموال لدعم دول التحالف فى أزمة الخليج مما يشير إلى أن طموح اليابان الاقتصادى إنما يعكس طموحًا سياسيًا عالميًا..

ومن الطبيعى أن نلاحظ أن فرنسا – كبقية البلاد الغربية – تسعى إلى التخلص من القبضة اليابانية (كما تفعل الولايات المتحدة تحديدًا) فى حين أن القوى اليابانية لا تتراجع بسبب سيطرتها الاقتصادية المستمرة.

الحملة الصليبية:

ولا نحتاج لجهد كبير لنفهم موقف كريسون من العرب، خاصة أن هذا الموقف ارتبط شكليًا بأزمة الخليج، فى حين أنه ارتبط مرجعيًا بالوطن العربى كله، وهنا، نستعيد موقف فرنسا من العرب إبان هذه الأزمة.

لقد بدا الهجوم على اليابان أشبه (بالحملة الصليبية) التى اتفقت فى كثير من دوافعها مع الحملات الصليبية التى كانت قد جاءت من الغرب المسيحى فى العصور الوسطى إلى الشرق..

وبدا الموقف الغربى من الآخر الشرق العربى معاديا للعرب معاداة تامة، خاصة وأن دواعى هذا الموقف يمكن أن تتشابه الآن مع مثيلاتها قبل ذلك، فهذا هو الصراع الاقتصادى يمثل الدافع الأول للصراع (فى حالة اليابان التقدم التكنولوجى، وفى حالة الوطن العربى التقدم الاقتصادى ممثلا فى البترول واستثماراته)..

وعبورا فوق الغزو العراقى للكويت (وهو لم يمتلك وعيًا بسـيطًا بالمفردات العالمية الجديدة بعد انتهاء الحرب الباردة وتعاظم الأهداف الأمريكية.. إلخ). فإننا يمكننا القول أن موقف كريسـون من اليابان هو هو موقف كريسون من العرب.

إن صدام حسين لم يكن غير ذريعة لدى الحلفاء (التى كانت فرنسا عضوا نشطًا بينهم) للعودة إلى البترول والاسـتثمارات والموقف الاسـتراتيجى لتأكيد أحلام الغرب، إن صدام حسـين لدى كريسـون (أو تاتشـر وميجور أو بوش) لا يمكن أن يكون بعد أن أقدم على حماقته أكثر من هتلر (نذكر أن هذا الاسـم «هتلـر» أطلق فى الغرب على صدام وعلى اليابـان فى وقت متقارب وكان صاحب التسـمية هذه كريسـون) - وبالتالى، فإن الغرب الآن لا يمكن أن يسـمح بوجود «نموذج يابانى» آخر فى هذا الشـرق، وخاصة أن هذا النموذج - على العكس من اليابان - كان مدججًا بالسلاح أيضًا.

أضف إلى ذلك كله أن موقف فرنسا كان مناهضًا للعرب، وحسبنا أن نذكر فى هذا الصدد أن موقف ميتران (رئيس الجمهورية الفرنسـية وصاحب اختيار كريسـون) كان وزيرًا للداخلية أثناء الحرب الفرنسـية الجزائرية، وكان ضد الكفاح الجزائرى، وأمر أن يقدم للمحاكمة كل من يردد بأن الجزائر عربية، وكان لا يرى أن مواجهة الجزائر لا تكون بغير طريق واحد، هو الحرب.

ونجدنـا مـرة أخرى فى موقف للعودة إلى ما كان يتردد إبـان حرب الخليج حين كانت تهاجم اليابان فتصفها كريسـون صراحة بأنها تسـعى إلى ما يسـعى إليه صاحب كتاب (كفاحى) وبذلك راحت تقرن اليابان بهتلر، وهو ما يذكرنا بالرسـالة التى قدمها مفكر إلى الاشـتراكيين الفرنسـيين الذين كانوا يتولون الوزارة بواسطة كريسون إبان أزمة الخليج إذ قال «- لقد سمينا، على الدوام، كلا من بن بيلا وعبد الناصر بهتلر.. (و).. أن الغرب يختار من يسميهم بهتلر على هواه ومصالحه.

وبذلك، فإن ذكر صدام حسين واقترانه بمثل هذه الأسماء إنما كان يحمل هاجس تهديد الغرب وإيقاظ المشاعر الاستعمارية القديمة.

الغرب ضد الغرب:

الأكثر من هذا أن الغرب فى مواجهة الشرق بدا فى كثير من الأحيان ضد نفسه، وذلك يحدث حين تتصادم الإرادات الاستعمارية أو المصلحية بين دولة وأخرى.

لقد راحت كريسـون تعلن - بشـكل بدا أيضًا عفويًا ومثيرًا - «أن الرجال البريطانيين والألمان والأمريكيين يميلون إلى الشذوذ الجنسى».. إلخ.

والواقع أن الموقف الفرنسى هذه المرة كان يحمل التمرد على ذاته، فمع أن الاقتصاد الفرنسى يمثل رابع أضخم اقتصاد فى العالم فإنه كان يقف فى المرتبة الخامسة عشرة بالنسبة إلى المنافسة مع الغرب.

وهذا الموقف يقترب من التناقض مع الغير والاتساق مع النفس..

غير أن هذا الموقف هو الذى كان يمكن أن يفسر به التردد الذى كانت تبدو به سياسة قصر (الإليزيه)، لقد بدا هذا التردد فى الأزمة اليوغسلافية، وفى انهيار الاتحاد السوفيتى، وفى توحيد الألمانيتين، وفى الانقلاب على جورباتشوف، غير أنه كان يبدو أكثر وضوحًا فى أزمة الخليج الأخير، ففى بداية الأزمة - كما يلاحظ محمد حسنين هيكل فى كتابه عن «حرب الخليج» كان التأثير الواضح على دور باريس هو التأثير التقليدى للدبلوماسية الفرنسية التى كانت ترى أن تحتفظ لفرنسا بموقفها على مسافة ما من الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا، وأن ذلك أدعى إلى تحقيق المصالح الفرنسية الاقتصادية العسكرية فى المنطقة - وكان من تصورات الدبلوماسية الفرنسية أن الأزمة ربما تحل بغير حرب لأن بغداد لن تواصل تحديها إلى ما لا نهاية، بل إنها لابد أن تتوقف عند مرحلة منه وأن تستعمل اتصالات طرف نافذ فى الغرب. وفرنسا هى المرشحة لهذا الدور، وإن وسائل هذا الدور متاحة أمام قصر الإليزيه، غير أنه حين بدت الحرب وأن حجم التعاقدات والمشروعات بعد الحرب ستكون أكبر، تحول التردد بسرعة إلى تأييد الأمريكيين(*)..

لقد أكدوا الولاء لبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية.. وهنا بدا موقف ميتران موقفًا براجماتيًا خالصا!!

وتحول الحزب الاشتراكى الفرنسى إلى رصيد جديد لسياسة الغرب التقليدية ضد الشرق، وبدا الاشتراكيون الحاكمون فى فرنسا منحازين تمامًا إلى صف اليمين الغربى الذى اشتد ساعده الآن وتحول من أفكار الحضارة الغربية ومبادئها إلى الطريق الآخر، طريق الاستعمار والعنصرية.

لقد وقف الغرب ضد الشرق، وتحولت كل الأحزاب اليسارية والاشتراكية إلى صف اليمين العنصرى..

ولم يعد يجدى الآن أن نتحدث عن أفكار تحريرية أو اشتراكية، وإنما عن قرن جديد آت، يطمح فيه الغرب أن يكون هو (قرن الغرب)..

* * *

وهنا نستطيع أن نفهم تصريحات أديث كريسون: المرأة ورئيسة الحكومة، يتمزق القناع وظهور الوجه الحقيقى الغربى الوجه القبيح.

(*) هذه السياسة (النفعية) الخالصة نجدها منذ فترة مبكرة فى أزمة الجزائر الأخيرة، إذ كانت هناك مفاوضات سرية تجرى فى الجزائر العاصمة، بين فرانسوا شير (استقال مع قضية جورج حبش) وبعض القادة الإسلاميين فى (الجبهة الإسلامية) للإنقاذ، وما إن أعلنت نتائج الاقتراع الأول حتى استعجل جاك دولور بالتصريح: «لماذا لا نتعاون مع الجبهة؟! أمورنا تسير جيدًا مع العربية السعودية؟».. وهنا رواية جاءت على لسان رشيد بو صبرة فى إحدى حواراته، انظر السفير ١٨/ ٤/ ١٩٩٢.

المراجع

تشـير العديد من المراجع إلى اديث كريسـون، وهذا النمط يقدم شـخصيتها بهذا الشكل على سبيل المثال الذى يتكرر كثيرا:

«ولدت اديث كريسـون لعائلة باريسـية ميسـورة عام ١٩٣٤، وتعلمت اللغة اللإنكليزية عن طريق مربيتها البريطانية. وأثناء نضوجها أدارت ظهرها للسياسـات المحافظة للطبقات الوسطى الفرنسية لضجرها من معالم هذه الطبقات.

انضمت لعضوية الحزب الاشتراكى الفرنسى، وعملت فى حكومة بيير موروى كوزيرة للزراعة خلال الفترة من ١٩٨١ حتى ١٩٨٣، ثم وزيرة للتجارة والسـياحة خلال الفترة من ١٩٨٣ حتى ١٩٨٤. ووزيـرة للتجـارة الخارجيـة والتنمية خلال الفترة من ١٩٨٤ حتـى ١٩٨٦ وعندما عاد الاشتراكيون للسلطة عام ١٩٨٨ سماها ميشيل روكار وزيرة للشئون الأوروبية، لكنها استقالت بعد عامين بعد أن شككت فى جدوى سياسات روكار المتعلقة بالاقتصاد والشئون الخارجية.

وخلال هذه الفترة اكتسـبت كريسـون رصيدا كممثل للجناح اليسارى للحزب الاشتراكى فى الحكومة. ونتيجة لذلك اختارها الرئيس الفرنسـى الراحل فرانسـوا ميتران فى الخامس عشر من آيار (مايو) ١٩٩١ لرئاسـة الحكومة، الأمر الذى آثار دهشـة الرأى العام. وكانت تلك هى المرة الأولى التى تشغل فيها سيدة منصب رئيس الوزراء فى تاريخ فرنسا. ولكنها اجبرت على الاستقالة فى إبريل (نيسـان) عام ١٩٩٢ بعد مواجهتها سـيل الانتقادات العامة الحادة للساسة والانزعاج من الإدارة الاشتراكية.

عملت عام ١٩٩٥ كعضو فى اللجنة الأوروبية مسئولة عن البحث والعلوم والتطور، لكن إدارتها لنفقـات الميزانيـة قد آثارت عليها الاعتراضات وجعلتها عرضـة للانتقادات الداخلية. وفى ١٦ آذار (مارس) عام ١٩٩٩ استقالت من منصبها هى وكامل أعضاء اللجنة الأوروبية. واستمرت فى تصريف الأعمال حتى تنصيب اللجنة الجديدة برئاسة روماتو برودى فى آيار (مايو) ١٩٩٩.

وقد وجدت اديث كريسـون، التى هبطت شـعبيتها إلى أعماق جديدة فى بداية التسـعينات من القرن الماضى عندما عينت رئيسـة للوزراء، نفسـها وسط أزمة تزوير تتعلق بالاتحاد الأوروبى وذكـرت لجنـة كلفت بإجراء تحقيق فـى المخالفات أن عضو اللجنـة الأوروبية قد اخفقت فى الاستجابة للمخالفات المعروفة والخطيرة والمستمرة عبر سنوات عدة:

- http://www.aawsat. com/details.asp?
- http://www.almotamar.net/news
- http://www.azzaman.com/azz/articles
- http://www.iraqcp.org.htm
- http://www.alhayat-j.com/details.shp



- إنها لا تهتم بمظهرها..

كثيرًا ما أطلق هذا الوصف، على رايسـا، قرينة الرئيس الروسـى ميخائيل جورباتشوف وهذا الوصف تكرر أكثر من مرة، وفى مناسـبات عديدة، حتى إن نانسـى - قرينة الرئيس الأمريكى السابق - انتقدت هذا المظهر صراحة فى شىء كثير من الغضب، وراحت تكتب فى مذكراتها:

- إنها لا تهتم بمظهرها..

إنهـا ترتـدى كثيرًا حذاء ذا كعـب مدبب، وتظهر فى الحفلات الرسمية بجيب سـوداء من الحرير، وهيئة مرتجلة..

والواقع أن المرأة الأولى فى الاتحاد السوفيتى كثيرا ما توصف بالإهمال فى مظهرها العام، غير أن ذلك نفسـه يمكن تفسـيره إذا اقتربنا أكثر منها، حيث ترتبط هذه المرأة - أكثر من غيرها من زوجات الرؤساء - بالواقع السوفيتى، وتكوينها الشخصى عبر سنوات طويلة.

مفتاح شخصية رايسا:

إن مـن يريد التعرف على مفتاح شـخصية رايسـا، لابد أن يبدأ من هـذه الملاحظة الخاصة بمظهرهـا، فقـد أثبت العلماء فى الفترة الأخيرة أن المظهر العـام يمكن أن يدل على صاحبه إلى حد بعيد.

وإذا نظرنا إلى النساء بوجه عام فسوف نجد أنهن يتحددن فى نوعين اثنين؛ يحدد كل منهما تكوين هذه المرأة أو تلك..

النوع الأول، امرأة تهتم بنفسـها بشكل مبالغ فيه، وتصل فى درجة أناقتها إلى درجة الغلو، والإسـراف، فـإذا ارتدت فهـى ترتدى أكثر الأزياء لفتًـا للنظر، وأكثر الملابس ثـراء ورفاهية، ويحرص هذا النوع على خاتم من الحلى الثمين المطعم بالماس والياقوت، على أن يكون القرط من نفس الطراز وسلسلة من اللؤلؤ التى يحيط به العقيق الأحمر..

ويحـرص هـذا النوع فـى كل مـرة أن تكون ألوان ملابسـها من نفـس ألوان المـكان الذى تذهب إليه..

وهذا المظهر يكون من شأنه أن يلفت النظر إليها للوهلة الأولى

هذا نوع، أما النوع الآخر من النساء، فهو على العكس من ذلك..

إنها تبدو فى أزياء بسـيطة وأنه لا يعوزها الأناقة الشـديدة، فهى تعرف جيدًا أن البسـاطة والأناقة تساوى الجمال الرقيق الشفاف من غير تزيد..

وهذا النوع، أيضًا، يغلب على إكسسواراتها التناسق الفنى الذى يدل على ذوق رفيع أكثر من ثراء واسـع، وفهم شامل باللمسـات التى تمنح الأنوثة فى بساطة متناهية بغير اختلاف ملفت، كما أن المظهر العام لا يبدو مسرفًا فى الألوان، بأية حال..

هذا النوع من النسـاء تمنحها شـخصيتها لونًـا محددًا من الجاذبية التـى تعتمد على الفهم لـما يحدث، وكيفية التأثـير فيمن حولها باختيارهـا للكلمة والتعبير والرغبـة فى التواصل مع الآخرين.

هذان نوعان من النساء

النظـرة العامـة إليها تشـير إلى أن الأولى تحفل بالخـارج أكثر من الداخـل، والأخرى تهتم بالداخل على حساب الخارج..

الأولى تهتم بالزى والمظهر والأظافر والريميل.

والأخـرى تهتـم – إلى جانب الأناقة والبسـاطة فـى التعبير – بالتكويـن العقلى، والتكوين الثقافى..

والمرأة الأخيرة، هنا، تمثل رايسا جورباتشوف..

إنها المرأة النقيض، التى تهتم بالتكوين الإنسـانى أكثر من المظهر الصارخ.. تهتم بما يحدث حولها وليس ما يحدث لها فقط.

هذا لا يعنى أن تكون المرأة الأنيقة دائمًا مسـطحة، أو لا تتمتع بقدر من الفهم، وإنما غالبًا، ما تكون المرأة الأنيقة البسيطة أكثر وعيًا من غيرها..

هذا النوع الأخير كثيرًا ما تكون فاعلة فى الحياة.

هذا النوع الأخير هو ما نجد فيه رايسا، قرينة الرئيس السوفيتى ميخائيل جورباتشوف.. إنها مثـال المـرأة (النموذج) التى حين تمضى مع زوجها لا تثقل نفسـها – كما نرى اليوم – بأطنان المجوهرات، بل تتنازل – حتى– عن هذا التقليد الذى ترتبط به السـيدة الأولى فى أية دولة.. ولا حتى – حين تغادر بلدها فى رحلة عمل مع زوجها – لا تحفل بوفد من مصففى الشعر وعدد كبير من الصحفيين والمصورين، أو تشغل نفسها كثيرًا بالتفصيلات التى تحول بينها وبين الدور الذى تزمع القيام به..

أن رايســا كانت تهتم دائمًا بما يضفى عليها من جاذبية، وتكون رســالتها الأولى التغلب على المشكلات التى تواجهها السيدة الأولى فى بلدها وخارج بلادها..

وللتعرف، أكثر، على رايسا، يجب أن نقترب، أكثر، من مفردات حياتها..

أستاذة الفلسفة :

رايسا.. لا تخفى عمرها الحقيقى.

إنها تجيب حين تسأل فى بساطة : ولدت فى ٥ يناير ١٩٣٢ وحين يداعبها البعض بأنها وصلت إلى الستين، تقول ضاحكة إنها لم تصل بعد إلى الستين لم أتجاوز باب الشيخوخة بعد..

ولا تتحرج من أن تتحدث عن مفردات حياتها الماضية ببساطة :

– انتمى إلى أسرة متوسطة، لقد كان أبى يعمل فى مهنة متواضعة بالسكة الحديد.

– تفوقت دائمًا فى دراستى، نعم.. حصلت على درجة الدكتوراه فى الفلسفة.

– فى أيام الجامعة كنت أجرى حوارًا دائمًا ومتصلاً مع أساتذتى.

– بعد تخرجى فى جامعة موسكو عملت أستاذة للنظريات الماركسية – اللينينية.

– اخترت السياسة، عن عمد، لكن اخترت – خارج نطاق التخصص – أن أتعرف على الفن وأقرأ الأدب وأجادل فى النظريات الجمالية..

– لا أتردد فى الدفاع عن الفلسفة السياسية السوفيتية.. وهل فى ذلك شىء يخجل؟

– عرفت جوربى (جورباتشــوف) فى هذه الفترة حين كان يدرس الحقوق، واقتربنا كثيرًا من بعضنا..

– جوربى – لم أرتبط به إلا بعد فترة طويلة من تعرفنا، أظن ذلك تم فى عام ١٩٥٣.

السيدة والدكتورة :

ومن ذلك، نرى من حديث رايسا أن تركيزها الأساسى لم يكن فى نظرياتها العلمية الفلسفية وحسب، وإنما كان ذلك وسيلة للدخول إلى عالم زوجها، حين اقتنعت أن الوعى بقضايا الاتحاد السوفيتى هو ما يجب أن يتحول – خلال الحوار الدائم مع زوجها – إلى غاية أساسية..

وآثرت أن تقف بجانبه وليس أمامه قط.

لم تكن رايســا امرأة طموحة، يبهرها، كما بهر كثيرات غيرها، مظاهر الأبهة فى الكرملين، ولا ردهات الحزب الشــيوعى الضخم، ولا المؤتمرات أو الانتقالات داخل بلدها وخارجه، وإنما أدركت أن طموحها يجب أن يكون من أجل بلدها مع جوربى (كما كانت تنادى جورباتشــوف دائمًا)..

وقفت رايسا مع جوربى سنوات التحول، منذ كان أمين عام للحزب الشيوعى ١٩٨٥ ثم حين أصبح رئيسًا للجمهورية عام ١٩٨٨، وتعرفت عن قرب على كثير من الاصطلاحات مما سمى بالانفتاح والمكاشفة وإطلاق الحريات، كما شهدت وعاشت تغييرات اقتصادية ضخمة كان لابد أن تمر بها البلاد من التحول الاقتصادى والانتقال إلى سياسة السوق.. وما إلى ذلك.

إن أحدث الكتب التى صدرت عن رايسا أشارت إلى أنها كانت إيجابية، ولم تكن سلبية قط، كانت تدخل فى حوارات مستمرة مثمرة مع زوجها، وتفكر معه فى القضايا التى كانت تمثل مشكلة كبيرة، بل إن جورباتشوف، وخروجًا على سياسة رؤساء الجمهوريات الضخمة لم يخف أنه كان «يستشيرها فى أدق تفاصيل سياسة الكرملين».

إن رايسا، المثقفة، أستاذة الجامعة.. لم تتردد فى الدخول إلى حلبة الجدل السياسى فى شئون بلادها، والمشاركة بوعى شديد، فيما تعانيه البلاد، فى حضور زوجها، وبعيدًا عن الأضواء وفلاشات الصحف..

وربما لهذا السبب لاحظنا أن نانسى - قرينة ريجان - تتحدث فى مذكراتها عن رايسا بحنق شديد، فتشير إلى مظهرها - كما أشرنا - وهى تطوى ضيقًا شديدًا، فمن المؤكد أن رايسا امرأة مثقفة، واعية لما يحدث حولها، ومن هنا، فهى لا تتردد فى الإعلان عن أفكارها السياسية الصريحة، وهى أفكار تجاوز السياسة إلى الفلسفة إلى الاقتصاد إلى الأزياء، ويمتد اهتمامها إلى قضايا كثيرة لا تتردد فى التعبير عنها بالإنجليزية التى تجيدها - على عكس النساء السوفيات - وباللسان والأسلوب الذى يوصل ما تريد إلى المستمع..

إن رايسا لا تقتصر فى أفكارها على السياسة ومحظوراتها، وإنما لها اهتمامات كثيرة بالفن، وكثيرا ما أدهشت محدثها باطلاعها الكبير على عيون الأدب ومذاهبه فى العالم..

الوجه الآخر :

على أنه يفرض علينا الحديث عن رايسا، العود ثانيًا إلى نانسى..

فإذا كانت رايسا سيدة هادئة، طموح، فإن نانسى كانت عاتية جموح. وإذا بدت الأولى بسيطة فى مظهرها العام، فإن الأخرى، تمثل، دائمًا الوجه الآخر..

ومن هنا، من النقيض نستطيع أن نتعرف على الصورة الأولى.. من الأسود نستطيع أن نميز الأبيض ونتعرف عليه..

ومن هنا، فمن يزر الاتحاد السوفيتى، خاصة، بعد الانقلاب الذى قاده المتشددون فى الحزب الشيوعى ضد جورباتشوف، يدرك، بسهولة، تلك المكانة التى تحتلها رايسا فى قلوب الشعب السوفيتى، ليس بالمظهر المثير، وإنما بتراكم الوعى والمواقف الرفيعة والشخصية المميزة..

وعلى ذلك، يسهل القول الآن: إن جزءًا كبيرًا مما وصل إليه جورباتشوف للنهوض بالاتحاد السوفيتى واستعادة المكانة الدولية ودخوله فى أكثر من حوار فى هذه الفترة العصيبة مع زعماء أطراف الاتحاد السوفيتى مثل يلتسين، ثم استعادة السلطة الكاملة بعد الانقلاب الفاشل.. نقول إن جزءًا كبيرًا مما أحرزه جورباتشوف يعود إلى رايسا؛ فقد كان يقول دائمًا وهو يشكرها [شكرا رايسا ماكسيموفنا لمساعدتها ودعمها وإخلاصها].

رايسا جورباتشوف:

كان على رايسا، أن تدرك، أكثر من غيرها التغييرات الحادة التى حدثت فى الاتحاد السوفيتى، ومن هنا، لعبت دور الزوجة ذكية القلب فى موقفها من زوجها فى هذه الأزمة..

إن رايسا لم تكتسب اسمها مفردًا، فلم تنادى - كما رأينا فى عديد من البلدان الأخرى، بسيدة أولى (سيدة الاتحاد السوفيتى الأولى)، كما أنها لم تنجرف لطموح المرأة لتصبح (نجمة) وحسب..

إنها ليست مدام دى بومبادور ولكنها رايسا جورباتشوف.. وكثيرًا ما كانت تقول، وهى تتحدث عن نفسها أنا رايسا ماكسيموفنا دليلا على معرفتها لدورها جيدًا.

وراءه وليس أمامه:

وبناء على ذلك، يمكن أن نتصور مدى الألم الذى أحست به رايسا فى الانقلاب الأخير ضد جورباتشوف..

إنها لم تتصور أبدا أن (كل) رجال الرئيس يمكن أن يتحولوا ضده فجأة، حتى بروتس، نائبه الأول (جينادى يانايف) كان أول من تمرد عليه وإعلان مرضه وتحول السلطة إلى لجنة أسميت (لجنة الطوارئ)..

لم تتصور رايسا ذلك أبدًا..

ولهذا، ففى الأيام الثلاثة التى عاش فيها الانقلاب لم يسمع قط عن رايسا، وحين عاد جورباتشوف، مرة أخرى، بثياب العطلة، لم ير رايسا معه.. رددت المصادر (التليفزيون الروسى ورئيس الوزراء ووكالات الأنباء) أن رايسا لم تتحمل الصدمة العنيفة، فأصيبت فجأة بما يشبه الموت، وحين أفيقت مرة أخرى كانت تحس بخدر يسرى فى يدها، ويهددها بالشلل، كما أصيبت بصعوبة فى النطق..

وأخيرًا، تردد أن جسد رايسا توقف كله، ولم يعد يتحرك فيها غيرُ عينيها، البراقتين، الذكيتين.. وما لبثت أن عادت إليها، مرة أخرى، قوة الإرادة فحاولت أن تتحرك، لكن الصدمة كانت أقوى من الإصابة المباشرة..

حين هبط ميخائيل جورباتشــوف من الطائرة بعد فشـل الانقلاب، لم يجد أحد من منتظريه رايسا معه، وحين سأل البعض أين السيدة الأولى، سمع الرئيس جورباتشوف يجيب:

– إن رايسا معي.

فقط لا ترونها لأنها لا تقف أمامي أبدًا

إنها تقف خلفي

لقد كان وراء جورباتشوف امرأة عظيمة اسمها رايسا جورباتشوف كما كانوا ينادونها، ورايسا ماكســيموفنا حين كانت تتحدث عن نفسها أو يتحدث عنها زوجها.. فهي في جميع الحالات المرأة: الزوجة.

المراجع

- http ://www.islamonline.net/iol-arabic

– كما نلاحظ أن أهم الإشـارات إلى رايسـا جورباتشوف ليس فى الإشارة إليها فى عديد من الصحف وفى المواقع الرقمية فحسـب، وإنما يمكن اسـتعادة كتابها المهم وهو حوار طويل بين السـيدة رايسـا زوجة الزعيم الروسى جورباتشوف والصحفى الروسـى المكلف بصياغة كلامها.. وأول ما يلفت النظر فى هذا الكتاب هو صدقها الشـديد مع بسـاطة أخاذة لا تشـك إلا فى أنها طبيعية.. ذلك هذه السـيدة ليسـت مجرد زوجة رئيس الجمهورية وإنما هى عالمة اجتماع ريفى دارسة للدكتوراة لكنها لم تشأ مناقشتها بعد أن صار زوجها رئيسا للجمهورية..

وكان موضوع الدراسة: «تطور المعالم الجديدة فى حياة فلاحى المزارع الجماعية»..

التفاصيل المهمة عن حياتها نجده والكتاب الذى بين أيدينا حوار طويل بين السيدة رايسا زوجة الزعيم الروسى جورباتشوف والصحفى الروسى المكلف بصياغة كلامها.. وأول ما يلفت النظر فى هذا الكتاب هو صدقها الشديد مع بساطة أخاذة لا تشك إلا فى أنها طبيعية.. كذلك هذه السيدة ليست مجرد زوجة رئيس الجمهورية وإنما هى عالمة اجتماع ريفى دارسة للدكتوراة لكنها لم تشأ مناقشتها بعد أن صار زوجها رئيسا للجمهورية..

وكان موضوع الدراسـة: « تطور المعالم الجديدة فى حياة فلاحى المزارع الجماعية فى هذا يمكن العود إلى:

- http ://www.ahewar.org/debat/show

وهنا يمكن العود إلى النص الأصلى لكتابها المهم: املى.. مذكرات ريسـا جورباتشـوف الذى نجده فى كثير من المكتبات والكتابات الرقمية..



من هي كليوباترا..؟

هل هي صاحبة الليالى الحسان، كما يصفها، عبد الوهاب؟

أو هي صوفيا لورين كما تراها في الفيلم المُبهر، الذى عرض في القاهرة ؟

أو هي هذه الصورة الغامضة التى نعرفها على علبة السجائر المصرية؟

وتزداد الحيرة..

هل هي كما يراها أعداؤها: الفاتنة، السكيرة؟

أو هل هي كما يراها المؤرخون: الذكية الواعية؟

عشـرات الصفات أصبحنا نتعرف عليها كلما تنامى إلينا هذا الاسـم التاريخى، السـاحرة: كليوباترا، حتى لا يمكن لاثنين، قط، أن يتفقا على من هي هذه المرأة/ الملكة.. كليوباترا.

ويزيـد من هذا التخبط مـا تنقله لنا العديد من المراجع الأجنبيـة القديمة منها والحديثة من ضراوة كليوباترا وسلوكها المُلتوى، خاصة؛ وأن هذه المرأة المصرية عندهم حاولت أن تنزع سيادة مصر من أنياب حكام العالم القديم، الرومان، لسنوات طويلة.

كليوباترا تحولت إلى أسطورة

والأسطورة عبقت بالغموض والسكوت..

لا نعرف عنها شيئا منذ ولدتِ حتى رحلت

لا نعرف عنها شيئا منذ أبحرت في نهر الحياة

ولا نعرف عنها شيئا منذ انتحرت وتركت كل شيء

وبين الإبحار والمصب تظل كليوباترا: امرأة غامضة

فلنحاول، نحن، أيضًا أن نقترب من هذا العالم الشرقى القديم للملكة، حاكمة مصر لسنوات طويلـة قبل ميلاد المسـيح بثلث قـرن على وجه التقريـب، حاكمة مصر التـى ارغمتنا، نحن المؤرخين، على أن نتعامل معها بتقدير واحترام شديدين.. من هي كليوباترا؟

لنصمت ونقترب من عالم التاريخ، قبل أن نعاود اقترابنا من الحاضر..

أنف كليوباترا :

إن أشـــهر التفســيرات التى لا تخلو من معنى رأى الفيلسوف الفرنسى المعروف باسكال، ماذا قال باسكال، قال بالحرف فى كتابه (أفكار):

لو أن أنف كليوباترا كان أقصر قليلا؛ لتغير وجه العالم بأسره.

ومعنى هذا، أن باسكال، والغرب طبعًا، مازال يرى فى كليوباترا، صورة امرأة جميلة، فاتنة، ســاحرة، ولأنها كذلك؛ فإنها اسـتخدمت كل أسلحة المرأة (الذرية) لتستحوذ على قلوب ملوك الرومان.

مــازال الغــرب يرى كليوباترا كما يريد أن يراها، مدام دى بومبادور (كما رأى شــهرزاد فى القرن الثامن عشر).. وهى امرأة اختلط فيها السحر بالأنوثة.

وأضيف إلى هذا كله قدر كبير من العهر والفجور.. فلو كان أنفها أقصر – أى لو كانت أقل جمالاً وأنوثة ومكرًا – لتغير التاريخ.

وهذا يعنى أننا لا نرى غير نصف الكوب الفارغ فقط .

لا نرى فى هذه المرأة غير أنفها المتسق مع جمالها المتفق مع أنوثتها، ونغفل، بالتبعية، العقل والإرادة والشخصية والذكاء.

إن كليوباتــرا هنا لا تزيد على تمثال (أفروديت) – هكذا كانوا يرونها فى عصرها من أعدائها (مثل المؤرخ بلوتارك) – ولأن التمثال يظل ثابتًا، فإن جماله يظل حبيس هذا الجبس أو الرخام دون أن يغادره..

ويظل السؤال قائمًا:

وهل هذه هى كليوباترا.. بالفعل؟

والواقع أن كليوباترا كانت فاتنة، بالقطع، لكنها كانت تحمل إلى جانب الفتنة ثقافة عالية، فهــى ابنــة الإغريق القدامى، وابنة المصرى الحقيقى.. كما كانــت تحمل وعيًا علميًا؛ إذ كانت صديقة لعلماء عصرها، وكانت تحمل قدرًا كبيرًا من الفطنة والذكاء، فضلا عن الطموح السياسى الجارف..

هذه هى..

لقد ولدت فى مصر وعاشــت فيها ســنوات طويلة من أســرة عرفت مصر منذ أكثر من قرون ثلاثة، ومن هنا، كانت خلاصة الشخصية الشرقية الفرعونية الذكية عرفت علوم المعابد، وفنون الإغريق، وفطنة المثقفين، وذكاء الكتاب، وجاذبية المرأة..

هذا كله، لعب دورًا كبيرًا فى صنع التاريخ وتغييره..

ولو لم تكن كليوباترا كذلك، لما اسـتطاعت أن تسـيطر على ثلاثة حـكام رومانيين من أقوى رجالات عصرهم وأذكاهم وأبرعهم على الإطلاق..

نقرأ حياة بومبى القائد الرومانى الكبير فنعثر على كليوباترا

ونقرأ حياة قيصر المنتصر دومًا فى معاركه فنجد كليوباترا

ونقرأ حياة أنطونيوس فى معارك الحرب أو الحب فنعرف كليوباترا

فلنقترب، أكثر، من المرأة/ الملكة..

المرأة السَّجَّادة :

كليوباترا كانت فى الثامنة عشرة من عمرها..

وقيصر كان رجلاً مكتمل الرجولة حين جاء إلى الإسـكندرية على إثر اضطرابات كثيرة وقعت فى مصر عام ٤٨ قبل الميلاد

وبطليمـوس - الأب - كان قـد رحل وترك وصية أن يخلفه على عرش مصر أكبر ولديه على أن يتزوج أكبر بناته (كليوباترا) ليحكما معًا.

ومع زيادة الاضطرابات طلب الابن من قيصر روما التدخل لتنفيذ الوصية التى كان الأب أوصى فيها بالفعل لقيصر بالتدخل لتنفيذها..

وطلب قيصر الجميع..

بدأ التمرد من بعض القادة المتمردين ضد قيصر، فلم يسـتطع الابن الوصول إلى قصر القيصر، وبدا أن كليوباترا لا تستطيع أيضًا الذهاب..

هنا، كان على المرأة الذكية أن تحسن التصرف، فبدأ عقل كليوباترا يعمل، فاختفت..

....

فى أحد الأيام التالية جاء من يهمس فى أذن القيصر: هناك تاجر سجاد يريد إهداءك سجادة شـرقية نادرة. وأصر يا مولاى على تسـليمها إليك بنفسـه.. لا بأس، أمر قيصر بدخول تاجر السجاد..

دخـل تاجر طويل القامة يحمل سـجادة بديعة التكوين، ومـا كاد يقترب من القيصر، حتى وضع السـجادة أمامه بهدوء، ثم راح يديرها لفتحها، وفجأة.. قفزت من داخل السـجادة امرأة على قدر كبير من الفتنة..

واسـتولت كليوباتـرا على عقل قيصـر، ولكن، ليس بفتنتها فقط، وإنما بتصرفها الجسـور، وشخصيتها الآسرة..

وبالفعل، استولت المرأة/ الملكة على عقله، ولم تمض عدة أيام حتى ذهب إلى الجمهور المصرى ليعلن إليه تنفيذ الوصية، أن تحكم كليوباترا، ولا بأس من أن يكون معها الأخ، الأصغر..

ودخلت كليوباترا فى علاقة عاطفية مع قيصر، ولكنها كانت علاقة زواج اقترنت بالألوهية.. وهى درجة تعلو عن درجة الزواج البشـرى، وحين أنجبت الطفل، أسمته: قيصرون، أو قيصر الصغير..

كانت كليوباترا فى كل علاقاتها مع قيصر حريصة على كونها ملكة مصر، ومن هنا، لم تكن علاقتها بالحكم الرومانى، كما يقال، كانت علاقة عشـيقة بعشـيقها، وإنما علاقة امرأة صعبة المراس، تعتز بشخصيتها، وبإرادتها، وكان من أول ثمرات هذا اعتراف قيصر الأب ببنوة الابن وراح يصنع للأم/ الزوجة تماثيل ضخمة، ويضع اسمَها على العملة..

ومن يدقق فى جدران معبد دندرة يلحظ صورة كليوباترا المتشقة، التى لا تخلو من روح وثابة، وبمصرية معتزة بها، فنحن أمام صورة الإلهة حتحور - إلهة الجمال عند القراعنة- ومعها ابنها قيصرون مرتديًا الزى الفرعونى، وهو ما يشير إلى أن كليوباترا أرادت الاحتفاظ بحكم مصر خلال وجودها كملكة وليست كامرأة عاشقة أو عشيقة.

لقـد تحددت علاقاتها بقيصر على هذا النحو، وهـو موقف لم تتجاوزه قط، فيما بعد، حتى التقـت بعـد مقتل قيصر فى روما، بأنطونيوس أو أنطونيو كما نجده فى الأشـعار والمسـرحيات العربية.

اللؤلؤة والخل:

بعد مقتل قيصر - غدرًا - فى روما جاء أنطونيو إلى الشرق باتفاق مع شريكه الآخر - أكتافيوس - بهدف تنظيم الأمور للإمبراطورية، ومن أفيسوس (أنطاكية الآن قرب سوريا) أرسل أنطونيو إلى كليوباترا التى لم يكن قد رآها حتى ذلك الوقت..

أرسل إليها بهدف التأكد من ولائها للإمبراطورية..

وقصة اللقاء بين كليوباترا وأنطونيو يصفها لنا المؤرخون فى شـىء كثير من الإسـراف بقصد النيل من صورة الملكة المصرية..

لقد قيل: إن البذخ الشـديد الذى أبدته كليوباترا فاق الحد، حتى إنها - أى الملكة المصرية - ذهبت للقاء أنطونيو فى مظاهر لم يشـهدها العالم من قبل؛ فولائم كليوباترا للحاكم الرومانى شهدت ألواح السقف التى تشع بالثراء، والعوارض الخشبية التى تختفى تحت طبقة سميكة من الذهب الخالص، والجدران التى صنعت من رخام وعقيق وأبنوس.. إلخ

بـل إن البعض يقول: إن كليوباترا فى حفلاتهـا الباذخة التى كانت تقيمها لأنطونيو حينئذ كانت تشهد الملكة المصرية، بنفسها، وهى تذيب اللؤلؤ فى الخل قبل أن تتناوله. وهو بذخ مبالغ فيه إلى درجة ينفيها الكثير من المؤرخين المنصفين.

ومســألة إذابــة اللؤلؤ فى الخل غير علمية بالمرة، ولا تصلح قــط للنيل من ملكة مصر، لأنه، ببساطة، لا يمكن إذابة اللؤلؤ فى الخل بالشكل العلمى المعروف.

ومهما يكن من أمر، فإن هذا البذخ الذى أســرفت فيه كليوباترا، وهو ما لا ننكره، كان ينم، عن وعى سياسى وإدارى فى التعامل مع الحاكم الجديد، فكلما أمكن التأثير فى أنطونيو، وتأكيد الحاضرين على عظمة مصر، كانت مصر تحتل منزلة متقدمة فى تقدير هذا الحاكم الرومانى، فما حدث فى ذلك الوقت من احتفال وإســراف كان القصد منه، فيما نرى، بالتعبير المعاصر (لزوم الرسميات) فى ذلك الوقت..

ويبــدو أن ذلــك الحفل كان من التأثير، مــع فتنة كليوباترا واعتدادهــا، بحيث إن أنطونيو ما لبــث أن أظهــر رضاءً كاملاً عن الملكة المصرية، وكان ثمار هذا كله، هو فرض كليوباترا العديد من الإجراءات فى ممالكها..

إن كليوباتــرا لم تقدم أية تنازلات للقادم القوى، بل إن معاصرى أنطونيو يؤكدون أن أنطونيو - الحاكم الرومانى- لم يســتطع الحصول من كليوباترا على أموال أو جيوش أو عتاد.. فى وقت كان فى أشد الحاجة إلى مثل هذه الإمدادات فى حروبه الشرقية لتوطيد مكانة الإمبراطورية..

مصر قبل أنطونيو :

الأكثر من هذا، أن الملكة المصرية استطاعت فرض سيطرتها على العديد من الأقطار الآسيوية، فامتدت إمبراطوريتها الآســيوية إلى مناطق شاســعة فى آســيا، والتاريخ يقول لنا: إنها حفرت اسمها ورسمها على البرديات والعملة فى ذلك الوقت.

ونســتطيع أن نضيف إلى ذلك كله: أن كليوباترا أوحت إلى أنطونيو أن يحارب شريكه الآخر فى الحكم، والأكثر من هذا، فإنه على الرغم مما يقال من أنها غدرت بحبيبها فى عرض البحر، فــإن المراجــع الحديثة تقول إنهــا لم تغدر به قط، وأن كل ما حدث أنهــا كانت قد اتفقت مع أنطونيو على خطة للانسحاب.

وقد كان هدفها الرئيسى من هذا الانسحاب الحرص على جيش مصر ورجالها وعتادها؛ حين تأكدت أن مواصلة الحرب سوف تجر إلى الدمار والخراب لإمكانيات بلادها وقوتها الحربية.

لقد كانت مصر أولا وليس أنطونيو

ومع ذلك، فإنها لم تغدر بأنطونيو، وإنما أوفت لمصر..

وحتــى بعد هزيمة أنطونيو فى عرض البحر ثم انســحابه وانهياره، فــإن التاريخ يقول، إنه على العكس من القائد الرومانى الكبير. فإن ملكة مصر لم تنهر، وإنما أمســكت بمقاليد الأوامر، وأعادت الجيش المصرى كله سالمًا.

هل غدرت بأنطونيو؟ :

المؤكد، أن كليوباترا لم تغدر بأنطونيو، وعلى العكس ما يجب أن تفعله ملكة، فإنها استقبلته وقد تخلى عنه جيشه أو هزم، وحاولت – وهو فى قمة انهياره – أن ترفع روحه المعنوية..

ولقد حاولت كثيرًا أن تحرضه على عدوه لينهض من جديد..

وعلى رغم أن أكتافيوس أرسل إليها، فى محنتها، وهزيمة حبيبها، يطلب منها أنها لو قتلت أنطونيو فسوف يتركها فى ملكها، هى وأولادها، فإن كليوباترا رفضت هذا الموقف المشين.

وحتى بعد أن انتحر أنطونيو لوشاية، فإن كليوباترا بعد ذلك لم تستسلم لعدوه قط، كما رفضت تهديده السافر أو وعوده الكاذبة..

وعلى رغم أنها تعرف المصير، فإنها رفضت أن تساوم..

لماذا انتحرت كليوباترا؟ :

ومـع أنه من المؤكد أن تهديد أكتافيوس – القائد الرومانى الجديد المنتصر – كان وراء انتحار كليوباترا، فإن مسألة (انتحار) هذه المرأة يظل علامة أكيدة على موقفها الوطنى المشرف.

لقـد هددهـا أكتافيوس فـى أولادها، كمـا هددها بدمـار قصورها ورجالها، ومـع هذا، لم تستسلم قط..

إن موقف الانتحار الذى أقدمت عليه لم يكن من موقف ضعف قط، وإنما كان من موقف وعى بما سـوف تؤول إليه البلاد لو تحكم القائد الجديد فى مصيرها، وراح يهينها فى موكب النصر فى روما..

كانـت تعرف أن إهانتها بهذا الشـكل، ووسـط شماتـة الرومان الذين كانـوا يكرهون المرأة المصرية.. معناه ضياع لكرامة مصر.

وكانـت تعـرف أن الطريق الآخر، الذى يبتعـد عن طريق الإهانة والتجريـح لمصر هو طريق الموت لها..

لم تختر أن تعيش مهانة..

واختارت الطريق الآخر..



المفترى عليهما

ريا وسكينة

هذه ليست ريا ولا تلك سكينة كما عرفناهما من قبل، ليست هذه (ريا وسكينة) كما عرفناهما من الفيلم الذى قدمه لنا صلاح أبو سيف تحت هذا العنوان فى الستينات.

كما أنها ليست ريا وسكينة كما قدمها لنا المخرج حسين كمال فى المسرحية التى حملت نفس العنوان (ريا وسكينة) فى الثمانينات فشغلت المحيط العربى والغربى، فأضاف حسين كمال إلى الخط المأساوى الرهيب – كما فعل أبو سيف – خطًا هزليًا آخر، اختلط فيه التراجيدى مع الكوميدى فى إطار موشى بالاستعراضات الصارخة والإفيهات التى تخفى الواقع وتظهر الفانتازى الغريب القائم على العبث..

كان نجيب الريحانى وبديع خيرى كتبا ميلودراما عام ١٩٢٢ عن «ريا وسكينة» مثلت على المسرح وقام الريحانى بها بتجسيد دور(زوج سكينة).

نقول ليست هذه ريا أو سكينة كما عرفها الوجدان الشعبى بعد مرور حقبة بعيدة على وجودها (قبض عليهما فى الإسكندرية عام ١٩٢١)..

لنبعد عن كتاب السناريو ونسأل:

إذن، فمن أين جاءت هاتان المرأتان؟

الإجابة عن هذا السؤال تفرض علينا أن نخرج من (كل) تصوراتنا السابقة التى عرفناها عن ريا وسكينة، ونحاول التعرف من جديد إلى تصورات جديدة وحكاية أخرى؟

ولا يعنى ذلك أننا سنحاول – فى سبيل الوصول لصورة ريا وسكينة – التعرف إلى مراحل هذه (المجزرة) التى ارتكبها هؤلاء، أو مراحل الكشف عنهما من البوليس المصرى والتحقيق فيما ارتكباه، فإن ذلك كله موجود فى ملفات القضاء المصرى خاصة فى هاتين السنتين الهامتين (١٩١٩ – ١٩٢٠)، وهى تحت إمرة من يريد التعرف إلى هذه المراحل، إن المجزرة – مجزرة النساء – لا تهمنا.

ولا حتى القصة التى انتهت بالكشف عن المرأتين..

وإنمـا كل ما يهمنا هو الظـروف التى صنعت هذا الصنف من النسـاء فى مجتمعنا المصرى، وراحت تصيغ ردود الأفعال لديهما بهذا الشـكل.. كيف نسـتطيع تفسير هذا السلوك الإجرامى عند المرأة المصرية؟

وبشكل آخر:

ما هى علاقة المجتمع بالنساء؟

ما هو سـبب الانحراف فى شـخصية المرأة فى عالم كعالمنا الثالث (هل هو ثالث حقًا فقط؟) مـازال الجنـس الثانى فيه يعانى من العنت ما تعانيه الأقليات؟ و فى وقت ما تزال فيه النسـاء – صنف كبير من النساء – ينصرفن عما تعانيه بنات جنسهن، ويغرقن فى الرفاهية ويبحثن عن المتع الصغيرة لإرجاء وقت الفراغ؟

إن السلوك الإجرامى عند المرأة يمكن أن يقربنا من كل هذه الأسئلة للتعرف إليها..؟

فلنتمهل أكثرقبل أن نصل إلى مجتمع ريا وسكينة..

وراء السلوك الإجرامى :

الدراسات العلمية تؤكد لنا أن الجريمة النسائية بمعناها الحقيقى هى البغاء، فهى تحل محل جرائم أخرى كثيرة، أو تنوب عنها، وقد تجمع المرأة – وهو ما نجده لدى ريا وسـكينة بوجه خاص – بين البغاء والقتل.

ويتحـدد السـلوك الإجرامى فى المجتمع المصـرى أكثر حين تبرز فى المقدمـة جناية القتل لدى المـرأة، وهو يتخذ شـكلاً محددًا، حين تسـتعين النسـاء فى حالات كثـيرة بالرجال فى ارتكاب القتل..

فالمعـروف أن تكويـن المرأة الفسـيولوجى لا يسـمح لها بارتـكاب هذه الجريمـة أو الإقدام عليها وحدها..

وحين نعود للظروف التى كانت تتم فيها الجريمة، نكتشـف أن ريا وسـكينة كانتا ترتكبان الجرائم من خلال الرجال أو تحت تأثيرهم سواء بسواء، ونحن نعرف أن شركاءهما فى الجريمة رجال أشداء من أمثال عبد العال وحسب الله وعرابى وعبد الرازق..

فالمرأة هنا مستطيعة بغيرها وليست بمفردها فقط..

إن ريا وسكينة سواء استخدمتا الرجال لإنجاز ما يريدان من جرائم، وتوسلتا بهم للوصول إلى ما يريدان بما يقلل عنهما تهمة الجريمة بشـكل مفرد، أو بشـكل بشـع تكثف فيه دوافع القتل على إنها لدى النساء الشريرات اللائى هن – بنوعيتهما – شريرات، فيقدمان على أنهما مثالان صارخان لشرور المرأة وألاعيبها..

وهنا نقترب أكثر فأكثر من الظروف التى تهيئ للمرأة فعل الجريمة والانغماس فيها.

إننا لا نتوقف عند البغاء فقط ولا الوقوع تحت تأثير الرجل ومن ثم محاولة استخدامه، وإنما تتوالى منظومة المجتمع بآفاتها المعروفة: التنشـئة الاجتماعية الفاشـلة، الفقر المدقع، الظروف البيئية السيئة، الشعور بالنقص في مجتمع يزخر بنماذج ثرية.. إلى غير ذلك.

هذه كلها بواعث وراء السلوك الإجرامى نستطيع أن نقترب منها أكثر حين نقترب من أرض الواقع.. واقع ريا وسكينة.

(بنات الليل):

منذ البداية نسأل :

من أين جاءت ريا وسكينة؟.

جاءتا من بلدة صغيرة من الصعيد تسمى (الكلح) يغلب عليها الفقر الشديد والبؤس الذى عرفت فيـه مناطق كثيرة من الوجه القبلى، عرف كل منهما الفقر في سـنواته الأولى، وعانتا الحاجة، سافرتا للهروب من هذا الواقع إلى بنى سويف، فكفر الزيات، تنقلتا، عملت سكينة لفترة ليست بالقصيرة في علب الليل المنتشرة بشكل رسمى فى القطر المصرى حينئذ، واقترفت الأخرى أعمالاً لا تقل بشاعة عن ذلك.

نستطيع القول – باطمئنان–: إن بنية المجتمع المختلة وراء التصرفات الأولى التى مضت بريا وسكينة إلى درب الجريمة..

كانتا لا تجدان ما يسد الرمق ويصنع الحياة الشريفة

احترفتا الجريمة الكاملة (البغاء) تحت ضغط المجتمع

عرفتا رجالاً مجرمين وأقوياء، ارتكبتا الجريمة تحت تأثيرهم

لم تجدا ما يعصمهما من هذا المصير، فى حين رأى الكثير من النساء الأخريات اللائى كن – على النقيض – يعشن حياة الثراء الكامل، على رغم أن حياة الكثيرات منهن لا تخلو من الريبة، كانت ريا – على سـبيل المثال – تعلن عن جرح حاد يكاد يودى بسـاقها، فى حين كانت ترى زنوبة – إحدى الجارات – ترتدى القطيفة، وفى يدها – كما تقول سـكينة، فيما بعد – تسـع غوايش فضة بيضة، وفى ودنها حلق ذهب خالص، وفى صدرها لبة وفى رجلها خلخال..

كانت ريا ترى هذه المرأة التى لا تبخل الحياة عليها بشـيء، ومع ذلك، فهى تراها ترتكب العهر، وتقبل عليه بضمير مستريح..

بل إن إحدى أولئك النسوة الثريات – وهو ما كان يثير غضب سكينة أو ريا أكثر – كن يعشن (كصديقات) فى بيوت الإنجليز..

ثمن السكوت :

تجمعت الظروف الاجتماعية السـيئة لتسهم في صنع مأسـاة الأختين.. كان الوقوع فى أسر الرجال الأشـداء سـببًا آخر يؤكد هذا المصير.. حين ذهبت سكينة لزيارة أختها فى أحد الأيام، اكتشـفت أن الرجال الآخرين مع أختها قاموا بقتل إحدى النسـاء، وحصلوا منها – وهى نائمة فـى نومتها الأخيرة – على الذهب والفضـة وما إلى ذلك مما كانت تحمله، وحين جفلت، قال لها الرجال:

– إن اتكلمت نعمل فيك زيها

ولا حد يشوفك؟

كانت تعانى انكسـار الروح فى مجتمع لا يرحم النسـاء، وانكسار الجسد حين كانت تمشى خطواتها ثقيلة من إثر إصابة سـاقها بإصابة بليغة. سمعت خلال ذلك كله حسـب الله وقد كان عنيفًا جائرًا يقول لها:

(خذى دول..)

وتكمل ريا أمام المحقق بعد القبض عليها والحكم بإعدامها:

فضلـت أعـالج رجلى بعد مـا فتحها لى المزين تجهم عرابى فى وجههـا (وقد كان فتوة حى اللبان) وطلب منها أن تأتى فى الغد، وحين ذهبت فى الغد لتجد جريمة أخرى، جفلت تحت الإحسـاس الطاغى بالرعب، وهو يهددها، ثم يضع فى كفها مبلغًا آخر ثمنا لسكوتها، وتكريسًا لموقف التوريط. قالت بانكسار هنا:

(رحت على المزين أغير على جرح رجلى..

ولم تكن سكينة إلا كأختها..

البيت (كرخانة) :

كانت ريا مثل سـكينة، تعانى من المجتمع – مثل أغلب نسـاء مصر فى العشرينات من هذا القرن – انتقلت من كفر الزيات إلى الإسكندرية بحثًا عن العيش، ومن رصد خطوات ريا وتنقلاتها فى هذه المدينة، التى كانت حتى هذا الوقت أشـبه إلى المدن الغربية، نلاحظ أن الفقر والحاجة لعبا دورًا رائدًا فى سلوك هذا الطريق، خاصة، وأنها لم تستطع – كامرأة – أن تصبح ندًا لزوجها – حسب الله – سواء فى قوته كرجل أم كأخلاقه كزوج.

كان حسـب الله ينفق ما يحصل عليه من عمله على نفسـه، وعلى (مزاجه)، ولا ينفق عليها قط، وحين اضطرت تحت وطأة الظروف أن تحول سكنها الفقير إلى بيت دعارة لتنفق على نفسها لم تجد مقاومة تذكر من زوجها.

وقد كان رضاء الزوج على أن يتحول البيت إلى (كرخانة) يرتبط دائمًا بحصوله على أى نقود مــن الزوجــة، لم يمانع، ولم يعترض قــط، تتذكر ريا ما كان يحدث قبل ســاعات من إعدامها فتقول فى أسى:

(كان حسب الله يأخد الفلوس كلها، ولا يجيب لى حتى صيغة أو حتى جلابية لبنتى)

الأكثــر من هذا، أنه حين عرف البوليس ما يجــرى داخل هذا البيت، وراح يقبض على ريا والآخرين متلبسين، فإن زوجها لم يحرك ساكنا..

استدعاه البوليس، وأبلغه أن يجعل زوجته تكف عن ذلك، قال له حكمدار قسم اللبان:

– يا حسب الله كفايا كده

وحين عاد إلى البيت طلب من ريا نقودًا أكثر، وقبل أن يخرج قال لها فى همس:

– كفايا صياح يا ريا.. اشتغلى فى السر..

كان حســب الله مثال الزوج الدنىء، على رغــم أنه تزوج ريا بعد وفاة أخيه الذى كان زوجًا لهــا، فإن هذا الــزواج تم بناء على ضغط الآخرين، وبعد أن تزوجها لم يهتم كثيرًا بها كزوجة، فقد كان الشــرب والأطعمة والنســاء هو كل ما يهمه فى هذا العالم، ومن هنا، فقد مارس معها أسلوب التشجيع على الدعارة ليحصل على ما يريد، وفى الوقت نفسه راح يهددها بحكم قوامته فى مجتمع (ذكورى) تكون الكلمة الأخيرة فيه للرجل، خاصة وأن هذا المجتمع كان ما يزال فى فترة تحولات حادة تعانى فيها من ربقة المستعمر وعسف الفقر والجهل..

كان من السهل على من يراقب حياة ريا وسكينة أن يدرك أنهما، وإن مارستا الجريمة الكبرى – الدعــارة – فإنهمــا ارتكبتا جرائمهما الأخرى – قتل النســاء – (معُ) وتحت نير الرجال، لم يكــن ليملكا – لو أرادا – الرفض، إن ســكينة حين تعتب علــى أختها فى إحدى المرات، ترد ريا بسرعة:

(– دول أربعة رجالة يا ختى.. هانعملوا معاهم إيه)

وهذا يشير إلى أمر واحد، هو، أنه وإن كانت دوافع الإجرام تفسر فى المجمع بشدة وطأة الفقر والحاجة، فإنها تفسر – كذلك – من طبيعة وضع المرأة الشرقية بالنسبة إلى الرجل..

وهو وضع كان فى البدايات من هذا القرن – فى مصر – يمثل الأدنى، ومن ثم، التابع دائمًا.

ومن المفيد أن نقول هنا إن المرأة – فى مجتمع كهذا – ليســت وحدها الضحية، وإنما الرجل أيضًا، إن الرجل فى المجتمع الهامشــى فى الإســكندرية فى عشرينات هذا القرن، كان يعانى مــن العيش فى مناطق فقيرة، يعشــش فيها المرض، وتروج العــادات القبيحة، وتخلو من الوعى الاجتماعى العادى..

وبذلك يمكن القول: إن طبيعة هذا المجتمع تؤدى إلى أن يفرز نســاء شقيات ورجالا ضحايا، رجالا يعيشون على (أعمال الفعلة كما هو الحال عند حسب الله) أو على أعمال الدعارة (كما هو الحال عند العديد من النساء فى هذا الوقت)..

الأكثر من ذلك أننا نلاحظ أن ريا وسكينة وبقية رجال (العصابة) كانوا يمثلون طبيعة المجتمع الهامشــى فى ذلك الوقت، فقد كانوا يمثلون، فى نهاية الأمر رمز الإنســان فى مجتمع شــرقى متخلف تروج فيه الجرائم وتفرز فيه سمات وخصال اجتماعية رديئة..

كان من الســهل أن نســمع أحــد الرجال يقــول فى الســنوات التى ســبقت القبض عليهم هذه العبارة:

– احنا معناش فلوس

وكان من السهل أن نسمع سكينة تقول كثيرًا:

– عملت فى أكثر من عمل شــريف: أجرت حجرتى للصعايدة، وأحضرت ما بقى من اللحم الفاسد لبيعه، وفى موسم القطن، وفى قلى الطعمية.. لكن الزمن كان يدفع بى دائمًا للغلط وكان من السهل أن نسمع ريا تقول:

– كل اللى عايزاه أروح للمزين يغير على رجلى.. دى هاتروح منى.

وكان من الســهل أن نتتبع خطى حســب الله لنعرف أنه كان يقضــى الأيام الطويلة لا يجد عملاً (كان فاعلا)، وعبد العال يبحث عما يسد رمقه (كان من الشغالين) وعبد الرازق (عربجى) وسلامة (سماك).. كانت أعمالهم البسيطة لا تسعفهم كثيرًا للاستقرار وتحسين الوعى الاجتماعى بما يسهم فى ابتعادهم عن الجريمة..

أنا جدعة:

وربما كان ذلك وراء المواقف التى عبروا بها عن أنفسهم فى اللحظات الأخيرة قبل أن يهوى عشماوى على أعناقهم..

ماذا قالت ريا وسكينة فى اللحظات الأخيرة؟

اندهشت النيابة أن تقف فى قفص الاتهام قبل أن تذهب لحتفها، لتقول بأعلى صوتها:

– أنا جدعة؟

وحين اعترض البعض على هذه الجرأة راحت تضيف:

– الواحدة رايحة المشنقة خلونا نتكلم على كيفنا

كان هــذا يعنى راحة نســبية للضمير الذى أحس، وربما لم يفارقــه هذا الحس، أن صاحبه اســتطاع خداع (الحكومة)، فاســتطاعت ريا القضاء على أولئك النساء اللائى كن عاهرات.. إن حسب الله يقول أمام غرفة الإعدام بوضوح وجرأة (نحن ما خسرنا غير العواهر).

أما ريا، فعلى رغم أنها كانت أقل شـجاعة من سـكينة، فقد كانت تقول وتكرر أن الجريمة الكاملة كانت صعبة، ولكن، ماذا أفعل و (دول أربعة رجالة علينا).

كانـت تريـد أن تقول بطريقتها - كما قالت شـقيقتها - إن المسـئولية فى النهاية ليسـت مسئولية المرأة، ولا - حتى - مسئولية الرجل الذى بدا الجلاد الأول لهما، وإنما هى مسئولية المجتمـع المتخلف، الذى مازالت القيـم الاجتماعية فيه متخلفة، والواقع يغلفه عدم الإنصاف، والارتجال..

وبعد، يبقى أن نشـير إلى نقطة أخيرة، أرجأناها حتى نهاية هذه السـطور لبداهتها، إننا لا نبرر لريا أو لسـكينة، ارتكاب الجرائم، ولا نحاول الدفاع عن أى منهما، وإنما حاولنا أن نعيد النظر فى تصورات قديمة، تحولت - على رغم خطئها وبشاعتها - إلى واقع، ونقصد بها تصور المرأة على أنها (شريرة) بطبيعتها..

أردنا - بوضوح - أن نفسر (حالة) ريا وسكينة

وهى حالة لا تهتم بالتفسير البيولوجى أو النفسى - كما يتردد دائمًا - وإنما هنا هى تعود إلى البنية الاجتماعية فى التحليل الأخير.. فالمجتمع - عندنا - هو المسئول عن السلوك الإجرامى عند الإنسان - رجلاً أو امرأة.

وتتحول ريا وسكينة إلى رمز لهذا الإنسان المفترى عليه :

فـى الأفلام العربية منذ فترة بعيدة، وفى الدراما المسـرحية الضاحكة، وبين الخيالات التى تمثل مكونا عميقا للذاكرة العربية.. وهو ما يدعنا نسأل حتى اليوم بدهشة :

ريا المفترى عليها..

وسكينة كمان ؟

المراجع

بلاغات وتحقيقات رسمية مع المتهمتين

– نص الحكم فى الاسكندرية – وتم تنفيذ الاعدام – دار المحفوظات

– ملف يسمبر سنة ١٩٢١– pdf ملف www.arablaws.org –

– مدونة التاريخ، انظـر أيضـا http://www.altareekh.com/vb/showthread.php?t=36107

دار المحفوظات – ملف pdf

ملاحق

البلاغ الاول :

بداية تلقي البلاغات

نحن الآن فى منتصف شـهر يناير ١٩٢٠ حينما تقدمت السـيدة زينب حسن وعمرها يقترب من الأربعين عاما ببلاغ إلى حكمدار بوليس الاسكندرية عن اختفاء ابنتها «نظله أبو الليل» البالغة من العمر ٢٥ عاما!.. كان هذا هو البلاغ الأول الذى بدأت معه مذبحة النساء تدخل إلى الأماكن الرسميـة. وتلقي بالمسـئولية على أجهزة الأمن.. قالت صاحبة البـلاغ: إن ابنتها نظلة اختفت من عشرة أيام بعد أن زارتها سيدة تاركة (غسيلها) منشورا فوق السطوح.. تاركة شقتها دون أن ينقص منها شـىء! وعن أوصاف الابنة التى اختفت قالت الام إنها نحيفة الجسـد.. متوسـطة الطول.. سمراء البشرة.. تتزين بغوايش ذهب في يدها وخلخال فضه وخاتم حلق ذهب! . وانتهى بلاغ الأم بأنها تخشـى أن تكون ابنتها قد قتلت بفعل فاعل لسـرقة الذهب الذى تتحلى به!.. وفى ١٦ مارس كان البلاغ الثانى الذى تلقاه رئيس نيابة الاسـكندرية الأهلية من محمود مرسـى عن اختفاء أخته زنوبه حرم حسن محمد زيدان.

الغريب والمثير والمدهش أن صاحب البلاغ وهو يروى قصه اختفاء أخته ذكر اسم ريا وسكينة.. ولكن الشكوك لم تتجه اليهما! وقد أكد محمود مرسى أن أخته زنوبه خرجت لشراء لوازم البيت فتقابلـت مع سـكينه وأختها ريا وذهبت معهما إلى بيتهمـا ولم تعد أخته مرة أخرى! وقبل أن تتنبه أجهزة الأمن إلى خطورة ما يجرى أو تفيق من دهشتها أمام البلاغين السابقين يتلقى وكيل نيابة المحاكم الاهلية بلاغا من فتاة عمرها خمسـة عشـر عاما اسمها.. (أم إبراهيم) عن اختفاء أمها زنوبة عليوة وهي بائعة طيور عمرها ٣٦ عاما.. ومرة اخرى تحدد صاحبة البلاغ اسم سكينة باعتبارهـا آخر من تقابـل مع والدتها زنوبه! فى نفس الوقت يتلقى محافظ الاسـكندرية بلاغا هو الآخر من حسـن الشـناوى.. الجناينى بجوار نقطه بوليس المعزورة بالقبارى.. يؤكد صاحب البلاغ أن زوجته نبويه على اختفت من عشرين يوما! ينقلت الأمر وتصحبه الحكايات على كل لسان وتموج الاسكندريه وغيرها من المدن بفزع ورعب غير مسبوقين فالبلاغات لم تتوقف والجناة المجهولـون مازلوا يخطفون النسـاء. بلاغ آخر يتلقاه محافظ الاسـكندرية من نجار اسمه محمد أحمد رمضان عن اختفاء زوجته فاطمة عبدربه وعمرها ٥٠ عاما وتعمل (شـيخه مخدمين) ويقول

زوج فاطمة إنها خرجت ومعها ٥٤ جنيها وتتزين بـ ١٨غويشـة وزوج (مباريم) وحلق وكلها من الذهـب الخالص – ويعطى الرجـل اوصاف زوجته فهى قمحية اللون طويلة القامة فقدت البصر بعينهـا اليمنى ولهذا ينادونها بفاطمة العوراء كما انها ترتدى ملاءة (كوريشـه) سـوداء وجلبابا كحليـا وفـى قدميها تلبس صنـدلاً! ثم كان بلاغ عـن اختفاء فتاة عمرهـا ١٣عاما اسمها قنوع عبدالموجود وبلاغ آخر من تاجر سـورى الجنسـية اسمه الخواجة وديع جرجس عن اختفاء فتاة عمرها ١٢ عاما اسمها لولو مرصعى تعمل خادمة له خرجت لشـراء أشـياء من السوق ولم تعد.. البلاغات لا تتوقف والخوف يسيطر على كل البيوت وحكاية عصابة خطف النساء فوق كل لسان بلاغ آخر عن اختفاء سليمة إبراهيم الفقى بائعة الكيروسين التى تسكن بمفردها فى حارة اللبان ثم بلاغ آخر يتلقاة اليوزباشي إبراهيم حمدى نائب مأمور قسم بوليس اللبان من السيدة خديجة حرم أحمد على الموظف بمخازن طنطا قالت صاحبة البلاغ وهى سـودانية الجنسية أن ابنتها فردوس اختفت فجأة وكانت تتزين بمصاغ ثمنه ٦٠ جنيها وزوج أسـاور ثمنه ٣٥ جنيها وحلق قشـرة وقلب ذهب معلق بسلسلة ذهب وخاتمين حريمى بثلاثة جنيهات هذه المرة يستدعى اليوزباشى إبراهيم حمدى كل من له علاقة بقصة اختفاء فردوس وينجح فى تتبع رحله خروجها من منزلها حتى لحظة اختفائها وكانت المفاجأة أن يقفز اسم سكينة من جديد لتكون آخر من شوهدت مع فردوس! ويتم استدعاء سكينة ولم تكن المرة الأولى التى تدخل فيها سكينة قسم البوليس لسؤالها فى حادث اختفاء إحدى السيدات ومع هذا تخرج سكينة من القسم وقد نجحت ببراعة فى إبعاد كل الشبهات عنها وإبطال كل الدلائل ضدها! عجزت أجهزة الأمن أمام كل هذه البلاغات وكان لابد من تدخل عدالة السـماء لتنقذ الناس من دوامة الفزع لتقتص للضحايا وتكشـف الجناة وهنا تتوالى المفاجآت من جديد حينما تحكم عدالة السماء قبضتها وتنسج قصة الصدفة التى ستكشف عن أكبر مذبحة للنساء فى تاريخ الجريمة فى مصر.

بداية اكتشاف الجريمة :

كانت البداية صباح ١١ ديسمبر ١٩٢٠حينما تلقى اليوزباشى إبراهيم حمدى إشارة تليفونية من عسـكرى الدورية بشـارع أبى الدرداء بالعثور على جثة امرأة بالطريق العام وتؤكد الإشـارة وجود بقايا عظام وشـعر رأس طويل بعظام الجمجمة وجميع أعضاء الجسـم منفصلة عن بعضها وبجوار الجثة طرحة من الشـاش الأسـود وفردة شـراب سـوداء مقلمة بأبيض ولا يمكن معرفة صاحبـة الجثة. ينتقل ضباط البوليس إلى الشـارع وهناك يؤكـد زبال المنطقة أنه عثر على الجثة تحت طشت غسيل قديم. وأمام حيرة ضابط البوليس لعدم معرفة صاحبة الجثة – وإن كانت من الغانيات أو لا – يتقدم رجل ضعيف البصر اسمه أحمد مرسى عبده ببلاغ إلى الكونستابل الإنجليزى

جون فيليبس النوبتجي بقسم اللبان يقول الرجل في بلاغه : إنه أثناء قيامه بالحفر داخل حجرته لإدخال المياه والقيام ببعض أعمال السباكة فوجئ بالعثور على عظام آدمية فأكمل الحفر حتى عثر على بقية الجثة التى دفعته للإبلاغ عنها فورا يتحمس ملازم شاب بقسم اللبان أمام البلاغ المثير فيسرع بنفسه إلى بيت الرجل الذى لم يكن يبعد عن القسم أكثر من ٥٠ مترًا يرى الملازم الشاب الجثة بعينيه فيتحمس أكثر للتحقيق والبحث فى القضية المثيرة ويكتشف فى النهاية أنه أمام مفاجاة جديدة لكنها هذه المرة من العيار الثقيل جدا.. اكدت تحريات الملازم الشاب أن البيت الذى عثر فيها الرجل على جثة أدمية كان يستأجره رجل اسمه محمد أحمد السمنى وكان هذا السمنى يؤجر حجرات البيت من الباطن لحسابه الخاص ومن بين هؤلاء الذين استأجروا من الباطن فى الفترة الماضية سكينة بنت على وصالح سليمان ومحمد شكيرة وأن سكينة بالذات هى التى استأجرت الحجرة التى عثر فيها الرجل على الجثة تحت البلاط وأكدت تحريات الضابط المتحمس جدًا أن سكينة استأجرت من الباطن هذه الحجرة ثم تركتها مرغمة بعد أن طرد صاحب البيت بحكم قضائى المستأجر الاصلى لهذه الغرف السمنى وبالتالى يشمل حكم الطرد المستأجرين منه من الباطن وعلى رأسهم سكينة وقال الشهود من الجيران: إن سكينة حاولت العودة إلى استئجار الغرفة بكل الطرق والإغراءات لكن صاحب البيت ركب رأسه وأعلن أن عودة سكينة إلى الغرفه لن تكون إلا على جثته والمؤكد أن صاحب البيت كان محقا فقد ضاق كل الجيران بسلوك سكينة والنساء الخليعات اللاتى يترددن عليها مع بعض الرجال البلطجية! أخيرا وضع الملازم الشاب يده على أول خيط لقد ظهرت جثتان إحدهما فى الطريق العام وواضح أنها لامرأة والثانية فى غرفة كانت تستأجرها سكينة وواضح أيضا أنها جثة امرأة لوجود شعر طويل على عظام الجمجمة كما هو ثابت من المعاينة وبينما الضابط لا يصدق نفسه بعد أن اتجهت أصابع الاتهام لأول مرة نحو سكينة كانت عدالة السماء مازالت توزع هداياها على أجهزة الأمن فبتوالى ظهور الجثث المجهولة استطاعت ريا أن تخدع سكينة وتورطها واستطاعت سكينة أن تخدع الشرطة وتورط معها بعض الرجال لكن الدنيا لم تكن يوما على مزاج ريا أو على كيف سكينة ومهما بلغت مهارة الإنسان فى الشر فلن يكون أبدًا أقوى من الزمن وهكذا كان لابد أن تصطدم ريا وسكينة بصخرة من صخور الزمن المحفور عليها القدر والمكتوب.

أدلة الاتهام :

بعد أن ظهرت الجثتان المجهولتان لاحظ أحد المخبرين السريين المنتشرين فى كل أنحاء الإسكندرية بحثا عن أية أخبار تخص عصابة خطف النساء لاحظ هذا المخبر واسمه أحمد البرقى انبعاث رائحة بخور مكثفة من غرفة ريا بالدور الارضى بمنزل خديجة أم حسب بشارع على

بـك الكبـير وأكد المخبر أن دخـان البخور كان ينطلق من نافذة الحجرة بشـكل مريب مما آثار شـكوكه فقرر أن يدخل الحجرة التى يعلم تمام العلم أن صاحبتها هى ريا أخت سـكينة إلا إنه كما يؤكد المخبر فى بلاغه أصابها ارتباك شـديد حينما سـألها المخبر عن سر إشعال هذه الكمية الهائلـة مـن البخور فى حجرتها وعندما أصر المخبر على أن يسـمع إجابة من ريا أخبرته أنها كانـت تترك الحجرة وبداخلهـا بعض الرجال الذين يزورونها وبصحبتهم عدد من النسـاء فإذا عادت ريا وجدتهم انصرفوا ورائحة الحجرة لا تطاق - إجابة ريا أشعلت الشك الكبير فى صدر المخبر السرى أحمد البرقى الذى لعب دورا كبيرا فاق دور بعض اللواءات الذين تسابقوا فيما بعد للحصول على الشهرة بعد القبض على ريا وسكينة بينما توارى اسم المخبر السرى أحمد البرقى.

لقد أسـرع المخبر أحمد البرقى إلى اليوزباشـى إبراهيم حمدى نائب مأمور قسم اللبان ليبلغه فى شكوكه فى ريا وغرفتها، على الفور تنتقل قوة من ضباط الشرطة والمخبرين والصولات إلى الغرفة ليجدوا أنفسـهم أمام مفاجأة جديدة لقد شـاهد الضابط رئيس القوة صندرة من الخشب تستخدم للتخزين داخلها والنوم فوقها ويأمر الضابط بإخلاء الحجرة ونزع الصندرة فيكتشـف الضابط من جديـد أن البلاط الموجود فـوق أرضية الحجرة وتحت الصندرة حديـث التركيب بخلاف باقى بلاط الحجرة يصدر الأمر بنزع البلاط وكلما نزع المخبرون بلاطة تصاعدت رائحة العفونة بشـكل لا يحتمله إنسان تحمل اليوزباشى إبراهيم حمدى حتى تم نزع أكبر كمية من البلاط فتظهر جثة امرأة تصاب ريا بالهلع ويزداد ارتباكها بينما يأمر الضابط باسـتكمال الحفر والتحفظ على الجثة حتى يحرر محضرا بالواقعة فى القسـم ويصطحب ريا معه إلى قسـم اللبان لكنه لا يكاد يصل إلى بوابة القسم حتى يتم إخطاره بالعثور على الجثة الثانية بل تعثر القوة الموجودة بحجرة ريا على دليل دامغ وحاسم هو ختم حسب الله المربوط فى حبل دائرى يبدو أن حسب الله كان يعلقه فى رقبته وسـقط منه وهو يدفن إحدى الجثث لم تعد ريا قادرة على الإنكار خاصة بعد وصول بلاغ جديد إلى الضابط من رجاله بالعثور على جثة ثالثة.

الاعترافات:

وهنا تضطر ريا إلى الاعتراف بأنها لم تشترك فى القتل ولكن الرجلين كانت تترك لهما الغرفة فيأتيان فيها بالنساء وربما ارتكب جرائم قتل فى الحجرة أثناء غيابها هكذا قالت ريا فى البداية وحددت الرجلين بأنهما عرابى وأحمد الجدر وحينما سألها الضابط عن علاقتها بهما قالت: إنها عرفت عرابى من ثلاث سـنوات لأنه صديق شـقيقها وتعرفت على أحمد الجدر من خلال عرابى وقالت ريا إن زوجها يكره هذين الرجلين لأنه يشك فى أن أحدهما يحبها القضية، بدأت تتضح معالمها والخيوط بدأت تتفكك عن بعضها ليقترب اللغز من الانهيار. تـأمر النيابة بالقبض على كل

مــن ورد اسمه فى البلاغات الأخــيرة خاصة بعد أن توصلت أجهزة الأمن لمعرفة أسماء صاحبات الجثــث التى تم العثور عليها فى منزل ريا ، كانــت الجثث للمجنى عليهن فردوس وزنوبة بنت عليوة وأمينة. بعد القبض على جميع المتهمين تظهر مفاجأة جديدة على يد الصول محمد الشحات هذه المرة جاء الصول العجوز بتحريات تؤكد أن ريا كانت تستأجر حجرة أخرى بحارة النجاة من شــارع سيدى اســكندر تنتقل قوة البوليس بسرعة إلى العنوان الجديد وتأمر السكان الجدد بإخلاء حجرتين تأكد الضباط أن ســكينة اســتأجرت إحداهما فى فترة وريا احتفظت بالأخرى كان فى حجرة ســكينة صندرة خشــبية تشــبه نفس الصندرة التى كانت فى غرفة ريا تتم نفس إجراءات نزع الصندرة والحفر تحت البلاط ويبدأ ظهور الجثث من جديد! لقد اتضحت الصورة تماما جثث فى جميع الغرف التى كانت تســتأجرها ريا وســكينة فى المنازل رقــم ٥ ش ماكوريس و ٣٨ ش على بك الكبير و ٨ حارة النجاة و ٦ حارة النجاة ولأول مرة يصدر الأمر بتشــميع منزل ســكينة بعد هذا التفتيش تتشجع أجهزة الأمن وتنفتح شهيتها لجمع المزيد من الأدلة حتى لا يفلت زمام القضية من يدى العدالة ينطلق الضباط إلى بيوت جميع المتهمين المقبوض عليهم ويعثر الملازم أحمد عبــد الله من قوة المباحث علــى مصوغات وصور وكمبيالة بمائه وعشــرين جنيها فى بيت المتهم عرابــى حســان كما يعثر نفس الضابط على أوراق وأحراز أخرى فــى بيت أحمد الجدر وفى هذا الوقــت لم يكن حماس الملازم الشــاب عبد الغفار قد فتر لقد تابــع الحفر فى حجرة ريا حتى تم العثور على جثة جديدة لإحدى النســاء بعدها تطير معلومة إلى مأمور قســم اللبان محمد كمال بأن ريا كانت تســكن فى بيت آخر بكرموز ويؤكد شــيخ الحارة هذه المعلومة ويقول إن ريا تركت هذا السكن بحجة أن المنطقة سيئة السمعة وتقوم قوة من البوليس باصطحاب ريا من السجن إلى بيتها فى كرموز ويتم الحفر هناك فيعثر الضباط على جثة امرأة جديدة!

كانت الأدلة تتوالى وإن كان أقواها جلباب نبويه الذى تم العثور عليه فى بيت سكينة وأكدت بعض النســوة من صديقات نبوية أن الجلباب يخصها ولقد اعترفت ســكينة بأنه جلباب نبوية ولكنها قالت إن العرف السائد بين النساء فى الحى هو أن يتبادلن الجلاليب وإنها أعطت نبوية جلبابا وأخذت منها هذا الجلباب الذى عثرت عليه المباحث فى بيت ســكينة نجحت ســكينة كثيرا فى مراوغة المباحث لكن ريا اختصرت الطريق وآثرت الاعتراف مبكرا قالت ريا فى بداية اعترافها إنها امرأة ســاذجة وأن الرجال كانوا يأتون إلى حجرتها بالنســاء أثناء غيابها ثم يقتلون النساء قبل حضورها وأنها لم تحضر سوى عملية قتل واحدة وانفردت النيابة بأكبر شاهدة إثبات فــى القضية بديعة بنت ريا التى طلبت الحصــول على الأمان قبل الاعترافات كى لا تنتقم منها خالتها ســكينة وزوجها وبالفعل طمأنوها فاعترفت بوقائع استدراج النساء إلى بيت خالتها وقيام

الرجــال بذبحهن ودفنهن وعلى رغم الاعترافات الكاملــة لبديعة إلا إنها حاولت أن تخفف من دور أمها ريا ولو على حســاب خالتها ســكينة بينما كانت ســكينة حينما تعترف بشكل نهائي تخفـف من دور زوجها ثم تعلن أمام وكيــل النيابة أنها غارقة في حبه وتطلب أن يعذروها بعد أن علمت سكينة أن ريا اعترفت في مواجهة بينهما أمام النيابة قالت سكينة إن ريا هي أختها الكبيرة وتعلم أكثر منها بشـئون الحياة وإنها ستعترف مثلها بكل شئ وجاءت اعترافات سكينة كالقنبلة المدوية قالت في اعترافاتها لما اختى ريا عزلت إلى بيت في شـارع على بك الكبير وأنا عزلت إلى شــارع ماكوريس جاءتني ريا تزورنــي في يوم كانت رجلي فيه متورمة وطلبت ريا أن أذهب معها إلى بيتها اعتذرت لعدم قدرتي على المشــي لكن ريا شـجعتني لغاية ما قمت معها.. واحنا ماشــيين لقيتها بتحكيلي عن جارتنا هانم اللي اشـترت كام حتة ذهب قلت لها (وماله دى غلبانه) قالت لى (لا.. لازم نزعلوها أم دم تقيل دى) ولما وصلنا بيت ريا لقيت هناك زوجي عبدالعال وحســب الله زوج ريا وعرابي وعبد الرازق الغرفة كانت مظلمة وكنت هصرخ لما شـفت جثــة هانم وهي ميتــه وعينيها مفتوحة تحت الدكه الرجاله كانــوا بيحفروا تحت الصندرة ولما شـعروا أني خايفه قالوا لى «احنا أربعه وبرة ثمانيه واذا اتكلمت هيعملوا فيا زى هانم!».. كنت خايفه قوى لكني قلت لنفسي وأنا مالى طالما الحاجه دى محصلتش في بيتي وبعد ما دفنوا الجثة أعطونــي ثلاثة جنيهات رحت عالجت بيهم رجلــي ودفعت أجرة الحلاق اللي فتحلي الخراج بس وأنا راجعة قلت لنفســي انهم كده معايا علشــان ابقى شـريكة لهم ويضمنوا اني مافتحش بقي وتروى ســكينة في باقي اعترافاتها قصه قتل ١٧ ســيدة وفتاة لكنها تؤكد أن أختها ريا هي التــي ورطتهــا في المرة الأولى مقابل ثلاثة جنيهات وبعد ذلك كانت تحصل على نصيبها من كل جريمة دون أن تملك الاعتراض خوفا من أن يقتلها عبدالعال ورجاله! وتتوالى اعترافات المتهمين عبدالعال الشاب الذى بدأ حياته في ظروف لا دخل لإرادته فيها طلب منه أهله ان يتزوج أرمله أخيه فلم يعترض ولم يدر أنه ســيتزوج اكبر سفاحة نساء في تاريخ الجريمه وحسب الله الشاب الذى ارتمى في أحضان ســكينة أربع ســنوات بعيدا عن أمه التي تحضر فجأة للسؤال عن ابنها الجاحد فتكتشف أنه تزوج من سكينة وتلتقي بها أم حسب الله فتبكي الأم وتطلب من ابنها أن يطلق هذه الســيدة فورا لكن حســب الله يجرفه تيار الحب إلى سكينة ثم تجرفه سكينة إلى حبل المشـنقة ليتذكر وهو أمام عشماوى أنه لو اســتجاب لنصيحة أمه لكانت الحياة من نصيبه حتى يلقى ربه برضاء الوالدين وليس بفضيحة مدوية كانت وراء كل متهم حكاية ووراء كل قتيلة مأساة ووضعت النيابة يدها على كافة التفاصيل ليقدم رئيس النيابة مرافعة رائعة في جلســة المحاكمة التي انعقدت يوم ١٠ مايو عام ١٩٢١ وكان حضور المحاكمة بتذاكر خاصة أما الجمهور العادى

الذى كان يزدحم بشدة لمشاهدة المتهمين فى القفص فكان يقف خلف حواجز خشبية وقال رئيس النيابة فى مرافعته التاريخية:

هــذه الجريمة من أفظع الجرائم وهــى أول جريمة من نوعها حتى إن الجمهور الذى حضرها كان يريد تمزيق المتهمين إربا إربا قبل وصولهم إلى القضاء هذه العصابة تكونت منذ حوالى ثلاث سنوات وقد نزح المتهمون من الصعيد إلى بنى سويف ثم إلى كفر الزيات وكانت سكينة من بنات الهوى لكنها لم تسـتمر لمرضها وكان زوجها فى كفر الزيات يدعى أنه يشـتغل فى القطن لكنه كان يشـتغل بالجرائم والسـرقات بعد ذلك سافر المتهمان حسـب الله وعبدالعال واتفقت سكينة وريــا علــى فتح بيوت للهوى وكان كل من يتعرض لهما يتصــدى له عرابى الذى كان يحميهما وكان عبدالــرازق مثلــه كمثل عرابى يحمى البيت اللى فى حارة النجاة وثبت من التحقيقات أن عرابى هو الذى أشار على ريا بفتح بيت شارع على بك الكبير أما عن موضوع القضية فقد حصل غياب النســاء بالتوالى وكانت كل من تغيب يبلغ عنها وكانت تلك طريقة عقيمة لان التحريات والتحقيقات كانت ناقصة مع أن البلاغات كانت تحال إلى النيابة وتأمر الإدارة بالبحث والتحرى عــن الغائبــات إلى أن ظهرت الجثة فعدلت الداخلية طريقة التحقيــق عمن يبلغ عنها وآخر من غابت من النســاء كانت فردوس يوم ١٢ نوفمــبر وحصل التبليغ عنها يوم ١٥نوفمبر وأثناء عمل التحريات والمحضر عن غيابها كان أحد الناس وهو المدعو مرسى وهو ضعيف البصر يحفر بجوار منــزل ريا فعثر علــى جثة بنى آدم فأخبر خاله الذى ابلغ البوليس وذهب البوليس إلى منزل ريا للاشتباه لأنها كانت تبخر منزلها لكن الرائحة الكريهة تغلبت على البخور فكبس البوليس على المنزل وسئلت ريا فكانت أول كلمة قالتها إن عرابى حسان هو القاتل بعد أن أرشدت عن الجثث وتم العثور على ثلاث جثث واتهمت ريا أحمد الجدر وقالت إن عديله كانت تقود النساء للمنزل واتضــح غــير ذلك وأن عديلــه لم تذهب إلى بيت ريا الا مرة واحــدة وأن اتهامها فى غير محله واعترفت ســكينه أيضا اعترافا أوضح من اعتراف ريا ثم أحضر حســب الله وعبدالعال وأمامهما قالت ريا وســكينة نحن اعترفنا فاعترف كل منهما اعترافات لا تشــوبها أى شــائبة وعندما بدأ رئيس النيابة يتحدث عن المتهمة أمينة بنت منصور قالت أمينة أنا مظلومة فصاحت فيها سكينة مــن داخــل قفص الاتهام ازاى مظلومة وفيه جثة مدفونة فى بيتك دى انتى أصل كل شــىء من الأول ويســتطرد رئيس النيابة ليصل إلى ذروة الإثارة فى مرافعته حينما يقول: إن النيابة تطلب الحكم بالاعدام على المتهمين السبعة الأول بمن فيهم (الحرمتين) ريا وسكينة لأن الأسباب التى كانت تبرر عدم الحكم بالإعدام على النســوة قد زالت وهى أن الاعدام كان يتم خارج الســجن.. أما الآن فالإعدام يتم داخل الســجن.. وتطلب النيابة معاقبة المتهمين الثانى والتاســع بالأشغال

الشاقه المؤبدة ومعاقبة الصائغ بالحبس ست سنوات. هذا ما حكمت به المحكمة بجلستها العلنية المنعقدة بسراى محكمة الإسكندرية الأهلية فى يوم الاثنين ١٦ مايو سنة ١٩٢١ الموافق ٨ رمضان سنة ١٣٣٩. (رئيس المحكمة) ملاحظة هذه القضية قيدت بجدول النقض تحت رقم ١٩٣٧ سنة ٣٨ قضائية وحكم فيها من محكمة النقض والإبرام برفض الطعن فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢١ .

ونفذ حكم الإعدام داخل الإسكندرية فى ٢١ و ٢٢ ديسمبر سنة١٩٢١

حكم قضائى: حكم إعدام ريا وسكينة

صدور الحكم التالى:

فى قضية النيابة العمومية نمرة (—) لبان سنة ١٩٢١

- «ضد» ١٠ متهمين، ريا وسكينة وثمانية آخرين جنايات الاسكندرية :

محكمة جنايات الإسكندريةحكم إعدام ريا وسكينةأصدرت الحكم الآتى:

فى قضية النيابة العمومية نمرة (——) لبان سنة ١٩٢١ .

«ضد» ١٠ متهمين، ريا وسكينة وثمانية آخرين

بعـد سماع أمر الإجابة وطلبات النيابة العمومية وطلبات المدعى بالحق المدنى وأقوال المتهمين ودفاع المحامين عنهم وشهادة الشهود والاطلاع على ورق الدعوى وأخذ رأى فضيلة مفتى مدينة الإسكندرية والمداولة قانونا.

«وطلـب محامـى المتهمين الأولى والثانية اسـتعمال الرأفة معهما وتـرك تقدير قيمة التعويض قبلهما للمحكمة. وطلب المحامى عن المتهم الثالث إجراء الكشف على قواه العقلية لمعرفة درجة مسـئوليته وطلب فى الموضوع الحكم ببراءته وطلب محامى المتهم الرابع اعتباره شريكاً ومعاملته بالمادة ١٩٩ عقوبات أو باستعمال الرأفة طبقاً للمادة ١٧ عقوبات وإبدال عقوبة الإعدام بالأشغال الشاقة فوض الرأى فى تقدير التعويض قبله. وطلب المحامون عن باقى المتهمين الحكم ببراءتهم ورفض الدعوى المدنية قبلهم وذلك للأسباب الواردة بمحضر الجلسة.

«المحكمة»

حيث.إنه قد تبين من التحقيقات التى حصلت فى الدعوى ومن شهادة الشهود الذين سمعوا أمام المحكمة أنه فى غضون المدة من يناير إلى ١٤ نوفمبر سـنة ١٩٢٠ ورد يوليس قسـم اللبان بالإسـكندرية عشرة بلاغات عن اختفاء عشر نسوة من الطبقة القاطنة بدائرة المذكور، قدمت هذه البلاغات من ذوى قرابتهن وحفظتها النيابة لعدم الاهتداء إلى معرفة مقر تلك النسوة ولا أسباب غيبتهن . وكانت الحرمة سـكينة بنت (...) ثانية المتهمين تسـكن فى ذلك العهد منزلاً لوالدة

من يدعى أحمد (ـــ) كائناً بحارة ماكوريس نمرة (٥) خلف قسم اللبان وكان مؤجراً لشخص يدعى محمد (ـــ) الذى أجر منه غرفة لسكينة بالدور الأرضى ثم أخلى هذا المنزل واستلمه المؤجر فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٢٠ فأخذ يجرى فيه بعض تحسينات طلبها منه مستأجر جديد وقد اتفق أنه فى يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٩٢٠ بينما كان أحمد (ـــ) يحفر فى أرضية الغرفة التى كانت تقيم بها سكينة لأجل تركيب مواسير المياه إذ عثر على جثة امرأة كانت مدفونة فيها فأخطر القسم بذلك وباستمرار الحفر بأرضية تلك الغرفة وجدت بها أيضاً جثتان لامرأتين خلاف الجثة الأولى. ثم حفرت أرضية غرفة أخرى لسكينة بمنزل موجود بحارة النجاة نمرة (٥) بقسم اللبان فوجدت بها جثة رابعة وقد علم وقتئذ أن لسكينة أخت تدعى ريا وهى المتهمة الأولى وريا هذه متزوجة بحسب الله (ـــ) ثالث المتهمين وكانت تسكن غرفة بالدور الأرضى بمنزل كائن بشارع على بك الكبير بالقسم المذكور وتكثر من التردد إلى غرفة بمنزل آخر كائن بحارة النجاة نمرة (٨) بدوره الأرضى تشغلها الحرمة أمينة (...) المتهمة الثامنة وقد وجدت اثنتا عشرة جثة نسائية مدفونة بالغرفة الأولى وجثة أخرى لامرأة مدفونة بالغرفة الثانية وتلك الجثث البالغ مجموعها سبع عشرة هى جثث النسوة المبينة أسماؤهن بأمر الإحالة وهذه المحلات جميعها أعدت للدعارة سراً وكانت البغايا من النساء تترددن إليها تارة من تلقاء أنفسهن وطوراً بطلب من ريا وسكينة لتعاطى المسكرات وارتكاب الفحشاء فيها وكانت إدارة المحلات المذكورة مشتركة بين ريا وسكينة وأرباحها تقسم بينهما.

ودل التحقيق على أن ثمانى جثث من السبع عشرة التى اكتشفت بالكيفية المتقدم ذكرها لنسوة من اللائى حصل عنهن التبليغ وهن نظلة بنت (...) وسليمة (ـــ)، ونبوية (ـــ)، وزنوبة (ـــ)، وفاطمة (ـــ)، وفردوس (...)، وتبين أيضاً أنه كان لتلك النسوة مصوغات معلومة عند ذويهن لم يعثر عليها فى محلات سكنهن.

وحيث إنه باستجواب سكينة أمام النيابة قررت بأنها اشتركت بالاتفاق مع أختها ريا فى قتل عشر نسوة من اللائى وجدت جثثهن بالمنازل المذكورة وبأن مطلقها محمد عبد العال وحسب الله - زوج ريا - وعرابى وعبد الرازق (ـــ) صاحبهم قتلوا منهم هانم ونظلة وعزيزة وزنوبة وبأنهم ما عدا محمد (ـــ) قتلوا أنيسة بنت (ـــ) وبأن حسب الله (ـــ) اشترك مع عرابى (ـــ) فى قتل نبوية زوجة السماك وسليمة بنت (...) الشهيرة بأم عرفات بائعة الغاز ونبوية القهوجية وفاطمة بنت المخدمة ومع عبد العال فى قتل فردوس وقررت بأن المجنى عليهن كانت تجىء بدعوة منها وأختها ريا إلى تلك المنازل للالتقاء بالرجال حيث يكون هؤلاء المتهمون فى انتظارهن مصرين باتفاقهم معها ومع أختها ريا على قتل تلك النسوة وسرقة ما

يكون عليهن من المصوغات. ولأجل تسـهيل قتلهن بواسطة من ذكروا من المتهمين كانت تقدمان إليهن الخمور قوية المفعول ما يكفي القليل منها لإسـكارهن سكراً شديداً لا يستطعن معه محاولة أية مقاومة أو استغاثة فكان أولئك المتهمون ينتهزون فرصة لاغتيالهن بواسطة كتم النفس والخنق وقـررت أيضا بأن أحدهم كان يخنق كل امرأة منهن بمنديل يشـده حـول عنقها أو بيديه بينما كان الآخـرون ممسـكين بيديها و رجليها وصدرهـا أو فمها لمنعها من إبداء أية حركة إلى أن يتم زميلهم فعلته وتزهق نفس المرأة وبأن عرابى هو الذى كان يباشـر الخنق فى معظم تلك الحوادث ثم يدفنون جثتها بالأمكنة التى وجدت فيها بعد تجريدها من مصوغاتها ومما يجدونه معها من النقود وكانت المصوغات تباع بعد ارتكاب الجرائم بمعرفة سكينة وريا إلى المتهم (ـــ) الصائغ وغيره وأثمانه توزع بينهم.

وحيث إن الإقرار الصادر من سـكينة أمام حضرة قاضى الإحالة وأمام هذه المحكمة لم يخرج عن هذا المعنى غير إنها قررت بأن القاتلين لسـليمة هم حسـب الله ومحمد (ـــ) وعبد الرازق وسلامة الكيت وقد كررت اعترافها أمام هذه المحكمة.

وحيـث إن ريـا بعد أن اختلفت فى أقوالها أمام النيابة اعترفت أثناء اسـتجوابها من حضرة قاضى الإحالة باشـتراكها هى وسـكينة بطريق الاتفاق فى قتل سـتة من تلك النسـوة وهن هانم ونظلة وأمينة و أنيسـة وفهيمة وفردوس وقرر بأن القاتلين لهن هم زوجها حسـب الله (ـــ) ومحمد (ـــ) عرابى (ـــ) وعبد الرازق (ـــ) واتفقت روايتها مع رواية سكينة فيما يختص بكيفيـة حصول القتل ودفن الجثث والتصرف فى المصوغات المسـروقة وقد كررت اعترافها أمام هذه المحكمة أيضاً.

وحيث إن حسب الله (ـــ) اعترف أمام النيابة بأنه قتل من النسوة ثمانى وهن نظلة وسليمة ونبوية بنت (ـــ) الشـهيرة بفهيمة باشـتراكه مع محمد (ـــ) وعرابـى (...) وعبد الرازق (ـــ) وفاطمة بنت (ـــ) المخدمة ونبوية (ـــ) باشـتراكه مع عرابى (...) وسـليمة بنت (ـــ) بإشـتراكه مع محمد (ـــ) - وأنيسـة مع اشتراك عرابى حسان وعبد الرازق (ـــ)، وقرر بأن القاتل لفردوس هو محمد (ـــ) وحده.

وحيث إن محمدا (ـــ) اعترف بتحقيق النيابة بقتله هانم ونظلة بالاشتراك مع حسب الله (...) وعرابى (ـــ) وعبد الرازق (ـــ) وبأنه اشـترك معهم أيضاً فى قتل امرأة لها سـنة من ذهب لا يعرف اسمها ورابعة يبلغ عمرها ٣٦ سـنة بيضاء نوعا متوسـطة الجسـم والقامة وامرأة خامسة وهى التى دفنت فى غرفة سكن المتهمة أمينة بنت (ـــ) ومحمد (...) أنكروا ما أسند إليهم . وحيث إن حسب الله (ـــ) عدل أمام حضرة قاضى الإحالة عن الاعتراف الصادر منه

فى تحقيق النيابة مدعياً أنه اعترف من الإهانة والجزع ولكن لا يمكن الاعتداد بهذا الادعاء لأن اعترافــه تكرر منه مــراراً بالتحقيقات يحتوى على وقائع مطولة وظروف مختلفة لا يمكنه ذكرها إلا إذا كان الاعتراف صادراً منه بمحض إرادته وفوق ذلك فإنه اعتراف مؤيد بالنسبة إليه :

أولاً : من ملازمته لزوجته ريا فى تلك المنازل الملازمة التى لا تجعلها تتداخل فى هذه الجرائم إلا بإشراكه معها فى الأعمال الشديدة التى لا تقوى عليها النساء أو على الأقل بتحريض منه.

ثانيًا: من شــهادة الســيدة بنت (ـــــ) التى قررت بأنه أعطاها جنيهين لأجل أن تتجاهل دخول فاطمة بنت (ـــــ) فى البيت الذى تقيم فيه سكينة بشارع ماكوريس وعدم خروجها منه أى البيت الذى قتلت فيه.

ثالثاً: من وجود ختمه فى التراب وقت النبش على الجثث المستخرجة من هذا البيت.

رابعاً: من رؤية (ـــــ) أحد الشهود له بعد حادثة فاطمة بنت (...) خارجاً من البيت ومعه صرة ملابس.

خامســاً: من شــهادة عزيزة بنت (ـــــ) التى أقامت فترة من الزمن ببيت ســكينة بشــارع ماكوريس بأنها تواجدت يوماً وقت المســاء عند رية فكلفها حسب الله بحمل شوال مربوط كانت تنبعــث منه رائحة كريهة فذهب معها عند ملتقى شــارع عبد المنعم بشــارع أبى الدرداء وهناك أمرها بترك الشــوال ثم تبين من التحقيقات التى حصلت بمناســبة البلاغات التى تقدمت بشأن اختفاء النســاء وجد بتاريخ ١١ ديســمبر ١٩٢٠ بالمكان الذى ألقى فيه الشوال هيكل امرأة يرجع تاريخ وفاتها إلى شهرين.

سادســاً: من ضبط محبس ذهب لفردوس وملابس لها أيضاً فى البيت الذى يسكنه مع زنوبة بنت (ـــــ) زوجته الجديدة.

وحيــث إن المتهم محمد (ـــــ) قرر أمــام قاضى الإحالة بخصوص الاعتراف الصادر منه فى تحقيقــات النيابــة أنه أغرى من رجال البوليس على هذا الاعــتراف وأنه لا دخل له فى جرائم القتل المسندة إليه ولكن اعترافه مؤيد على كل حال من ضبط فنيلة صوف لفردوس عنده ومن إقرار على (ـــــ) الصائغ بحضوره إليه مع حســب الله وريا وســكينة عند عرض المصوغات المسروقة عليه ومن ملازمته فى كل وقت لزوجته ســكينة ولأختها ريا ولزوجها حســب الله (ـــــ) ومن شــهادة زنوبة بنت (ـــــ) زوجة حســب الله الثانية بأنه جاء إليها بصحبة حسب الله ومعهما ما ضبط عندها من ملابس فردوس بنت (...).

التوقيع

وحيث إن المحكمة تســتنتج مــن الوقائع المتقدمة بأنها ومن كون المتهمين المعترفين اشــتروا فــى بحر المــدة التى ارتكبت فيها هذه الجرائم من المصوغات ما لم يمكنهم شــراؤها إلا من ثمن

ما سرقوه من حلى المجنى عليهن ،ومن كون حالة الجثث دلت على أن تاريخ القتل لم يكن سابقاً على إقامتهم فى البيوت التى وجدت بها تلك الجثث أن المتهمين المذكورين لم يشتركوا فقط فى قتل النسوة الوارد ذكرهن فى اعترافاتهم بل قتلوا أيضاً النسوة الأخريات المبينة أسماؤهن بأمر الإحالة.

وحيث إن المتهم عرابى (ـــ) مع إنكاره ما أسند إليه من التهم ادعى أنه لم يتوجه مطلقاً عند ريا وسكينة من عهد إقامتهما بالمنازل التى استخرجت منها الجثث وإن كان يوجد سابق معرفة بينه وبينهما وبين حسب الله (ـــ) ومحمد (ـــ) بمناسبة تردده عليهم بالمحل المشهور بالكامب الذي كانت تديره ريا بسوق الجمعة بالإسكندرية ولكن قد كذبه فى ذلك شهود منهم السيدة بنت (ـــ) بغرفة المنزل الكائن بشارع ماكوريس فى اليوم نفسه الذى اختفت فيه فاطمة المذكورة ورأت تراباً مكوماً بجوار باب الغرفة وهذا التراب كان قد استخرج من أرضية الغرفة بعد دفن جثة فاطمة فسألت عنه فأخبرها حسب الله وريا أن المرأة قد تقيأت فنقلت التراب إلى تحت سلم المنزل ومنهم زينب بنت (...) التى شهدت بأن ابنتها نظلة إحدى المجنى عليهن كانت تجتمع كثيراً بالمتهم المذكور عند ريا وكانت تخشى بأسه لأنه فتوة ومشهور بأنه يخنق ومنهم شفيقة بنت (...) وعبد المحسن (ـــ) اللذين قررا رؤيتهما لعرابى (ـــ) يتردد على منزل ريا الكائن بشارع على الكبير وقد شهد غيرهم بأن نظلة المقتولة كانت خليلة عرابى وكان يريد الزواج بها ولما اختفت لم يهتم بأمرها وأخذ يقول لكل من كان يسأله عنها بكرة تحضر.

وحيث فيما يتعلق بالمتهم عبد الرازق (ـــ) فإنه ثبت من أقوال الشهود أنه كان معاشراً للحرمة أنيسة بنت (ـــ) إحدى المجنى عليهن وكان يجتمع بها فى منزل ريا بشارع على بك الكبير وكانت أنيسة المذكورة نسبت إليه قبل اختفائها سرقة قرط من ذهب ونقود لها ووسطت بعض أصدقائها فى استرداد هذه الأشياء منه فرفض وأظهر غضبه عليها خصوصاً لما رأى أن تهمة السرقة الملصقة به أخذت تنتشر فى القهاوى التى كان يذهب إليها فكان حينئذ من مصلحته أن يقتل أنيسة للتخلص من تشهيرها به والاستفادة بجزء من حليها وقد ثبت منها أيضاً أن عبد الرازق كان معاشراً لريا وسكينة وحسب الله ومحمد (...) من بدء سكنهم بالمنازل التى وجدت بها الجثث ومرتبطاً بهم كل الارتباط وكان يرى من واجبه أن يدافع مع عرابى (ـــ) عن سمعة تلك المنازل كلما وجد لذلك فرصة مع عملهما بما هو حاصل فيها من القبائح وكان به عند ريا وسكينة من المنزل والمكانة ما يجعله يتصرف فى محلاتهما كيف يشاء ويضاف إلى ذلك أنه من أجلها هذه الدعوى بمبلغ لا يمكنهما الحصول عليها من المكاسب التى كانت تأتيهما بالوسائل المباحة.

وحيث إنه يستنتج من هذه الظروف والظروف السابق بيانها ومن الكشوف الطبية الموقعة علـى الجثث المؤيدة لما ورد فى أقوال المتهمين المعترفين من حصول القتل بطريق الخنق ومن يد عدة أشخاص ومن القرائن القوية التى تعزز أقوال رية وسكينة وحسب الله (ـــ) ومحمد (...) بالنسبة لكل من عرابى (ـــ) وعبد الرازق (ـــ) ما يحمل المحكمة على الاعتقاد التام بأنهما باشرا قتل السبع عشرة نسوة المتقدم ذكرهن.

وحيث إنه متى تقرر ذلك يكون عقاب حسب الله (ـــ) ومحمد (ـــ) وعرابى (ـــ) وعبد الرازق (ـــ) بصفتهم فاعلين أصليين للجرائم المذكورة وهى سفكهم دماء السبع عشرة نسوة عمداً مع سبق الإصرار فى الظروف المتقدم بيانها واستباحة أموالهن بتبديدها فى المنكرات وذلك فى المدة الواقعة بين نوفمبر سنة ١٩١٩ و ١٢ نوفمبر ١٩٢٠ بجهة حى اللبان بالإسكندرية هاته الآثام التى لم يشاهد مثلها فى القسوة والفظاعة من عهد تأسيس المحاكم للآن منطبقاً على نص مادتى ٣٩ و ١٩٤ عقوبات.

وعقاب رية وسكينة بصفة كونهما اشتركتا مع الفاعلين الأصليين فى التاريخ والمكان السابق ذكرهما فى تلك الجرائم بطريق الاتفاق والمساعدة فى الأعمال المسهلة لإرتكابها بأن أحضرتا المجنى عليهن إلى محلاتهما وأسكرتهن ليتمكن الفاعلون الأصليون من خنقهن بدون أدنى مقاومة منهن فوقعت جرائم القتل بناء على هذا الاتفاق وهذه المساعدة منطبقاً على نص المادة ٤٠ فقرة ثانية وثالثة و ٤١ و ١٤ و ١٩٩ من القانون المشار إليه.

وحيث إن أوراق هذه الدعوى قد أرسلت بتاريخ ١٢ مايو سنة ١٩٢١ إلى حضرة صاحب الفضيلة مفتى مدينة الإسكندرية لإبداء رأيه طبقاً للمادة ٤٩ من قانون تنظيم محاكم الجنايات ووردت منه مشفوعة برأيه فى ١٥ منه بنمرة ٤٠١.

وحيث عن تهمة سلامة (ـــ) الملقب بالكيت فإنه لم يوجد ضده سوى أقوال سكينة وحسب الله (ـــ) التـى لم تؤيد بأى دليل من الأدلة المقنعة حتى يمكن الأخذ بها والتعويل عليها فى الحكم بإدانة الشخص المذكور فيما هو متهم به كما وأن المحكمة ترى فيما يختص باتهام كل من أمينة بنت (ـــ) ومحمد (...) الشهير بالنص زوجها بالاشتراك فى قتل نبوية بنت (ـــ) بالاتفاق والمساعدة أن الأدلة التى وصلت إليها التحقيقات لا تكفى لإثبات التهمة الموجهة إليهما ويتعين الحكم حينئذ ببراءة الثلاثة المتهمين المذكورين لعدم ثبوت التهمة المسندة إليهم ثبوتا كافياً عملاً بالمادة ٥٠ من قانون تشكيل محاكم الجنايات.

وحيث إن تهمة إخفاء المصوغات المسروقة المنسوبة إلى علـى (ـــ) ثابتة من اعترافه أنه اشترى جانباً من مصوغات المجنى عليهن على أربع دفعات من ريا وسكينة بحضور حسب

الله (...) ومحمد (ـــ) وذلك أثناء المدة من نوفمبر ســنة ١٩١٩ لغاية ١٢ نوفمبر ســنة ١٩٢٠ بالإسكندرية ولكنه يدعى أنه كان يجهل مصدر تلك المصوغات الحقيقي.

وحيث إنه مع التقدير المذكور لم يشــتر تلك المصوغات إلا فى أربع دفعات كما يقول وليســت فى ســت دفعات كما قالت سكينة فقد تبين للمحكمة أنه كان يعلم بسرقة المصوغات عند شرائه إياهــا بدليل حصول الشــراء خفية وبثمن يقل عن نصف قيمتهــا الحقيقية وبدون أن يحتاط فى أخذ الضمانات التى يكون من شــأنها إخلاء مســئوليته عند الاقتضاء وإســراعه بكسر معظم تلك المصوغات لإضاعة معالمها.

وحيث إنه مما تقدم تكون تهم الجرائم المسندة إلى محمد (ـــ) ثابتة قبله فى الأربع وقائع المعــترف بهــا فقط وعقابة ينطبق على نص المادة ٢٧٩ فقــرة أولى من قانونه العقوبات مع مراعاة المادة ٣٦ منه بالنظر إلى تعدد الجرائم «..................».

«فلهذه الأسباب»:

وبعد الاطلاع على النصوص القانونية المتقدم ذكرها حكمت المحكمة حضورياً:

أولاً: علــى كل من ريا وســكينة بنتى (ـــ) وحســب الله (ـــ) ومحمد (ـــ) وعرابى (ـــ) وعبد الرازق (ـــ) بعقوبة الإعدام.

ثانياً: على .... على (ـــ) الصائغ بالحبس مع الشغل لمدة خمس سنوات.

ثالثا: ببراءة كل من ســلامة (ـــ) والحرمة أمينة (...) الشــهيرة بأم أحمد وزوجها محمد (ـــ) الشــهير بالنص مما أســند إليهم فى هذه الدعوى ورفض الدعوى المدنية الموجهة قبلهم وقبل على محمد (ـــ) الصائغ....

هذا ما حكمت به المحكمة بجلســتها العلنية المنعقدة بســراى محكمة الإسكندرية الأهلية فى يوم الأثنين ١٦ مايو ســنة ١٩٢١ الموافق ٨ رمضان سنة ١٣٣٩. (رئيس المحكمة «ملاحظة» هذه القضية قيدت بجدول النقض تحت رقم ١٩٣٧ ســنة ٣٨ قضائية وحكم فيها من محكمة النقض والإبرام برفض الطعن فى ٣٠ أكتوبر ســنة ١٩٢١. ونفذ حكم الإعدام داخل الإســكندرية فى ٢١ و ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٢١.

مراجع

- نص الحكم فى الاسكندرية – وتم تنفيذ الاعدام – دار المحفوظات
- ملف ديسمبر سنة ١٩٢١- pdf ملف www.arablaws.org -
- مدونة التاريخ، انظر أيضا http://www.altareekh.com/vb/showthread.php?t=36107
دار المحفوظات – ملف pdf

السيرة الذاتية والعملية والمؤلفات

أولا: السيرة الذاتية

مصطفى عبد الغنى.

• من مواليد القاهرة.

ليسانس الآداب/ جامعة عين شمس ١٩٧٤، ماجستير فى التاريخ الحديث ١٩٨١، دكتوراه فى فلسفة التاريخ الحديث ١٩٨٨.

رئيس (المنتدى الأدبى) الأهرام.

ناقد أدبى. ناقد ثقافى. مؤرخ فى التاريخ الحديث والمعاصر

عضو فى العديد من المؤسسات الثقافية، منها:

عضو لجنة الدراسات الأدبية بالمجلس الأعلى للثقافة. وعضو الجمعية التاريخية. وعضو جمعية النقد الأدبى. ومستشار سابق لمجلة (بريزم) التى تصدر بأكثر من لغة عن وزارة الثقافة.

اختارته دار الوثائق المصرية عضوا فى لجنة الإشراف على تراث عميد الأدب العربى، الدكتور طه حسين. فى فترة مبكرة من حياته قرأ الكثير من كتب التراث (الشعر بوجه خاص). بالإضافة إلى الإصدارات الحديثة المؤلفة والمترجمة. أجاد اللغة الفرنسية، لغته الأولى وقرأ بها الأدب والفكر الغربيين.

قضى أكثر من سبع سنوات فى الجيش المصرى فى الفترة من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٣ حيث شارك فى حرب الاستنزاف، وأصيب فيها أكثر من مرة. عاد بعدها إلى الجامعة المصرية وواصل دراساته العليا حتى حصل على درجة الدكتوراه.

جسّد مشروعه (الفكرى) فى العديد من المجالات، فكتب فى الدراسات الأدبية والنقد الأدبى والفكر السياسى والتاريخ والسياسة والتراجم والدراسات المقارنة والإبداع المسرحى وأدب الرحلات والترجمة والسيرة الذاتية.

الجدير بالذكر هنا أنه يواصل مشروعه لكتابة تاريخ وتطور اتجاهات النقد العربى فى العصر الحديث، وقد صدر من هذا المشروع الجزء الأول بعنوان:

(اتجاهات النقد العربى الحديث) عن الهيئة العامة للكتاب.

حصل على درجة الماجستير بأطروحة عن:

«طه حسين ودوره السياسى – ١٩٤٥/ ١٩٧٠»

حصـــل على درجة الدكتوراه فى فلســـفة الآداب، فى فـــرع التاريخ الحديث والمعاصر، وكان عنوان أطروحه:

«المثقفون وعبد الناصر ١٩٤٥ – ١٩٦٨».

شارك فى العديد من المؤتمرات والندوات، منها:

مؤتمر حوار الحضارات – برعاية وزارة التعليم العالى وجامعة عين شمس – مصر ٢٠٠٢.

المشاركة فى المؤتمر الأول للمثقفين الذى عقدته مكتبة الإسكندرية وعلى مدار أكثر من دورة من دورات المؤتمر. شـــارك فى عدد من المؤتمرات المهمة التى عقدها المجلس الأعلى للثقافة، منها: .مؤتمـــر العولمة والثقافة العربية. مؤتمر طه حســـين والثقافة العربيـــة. المؤتمر الخاص بالاحتفالية الكبرى بمناسبة مرور ٥٠ عاما على ثورة يوليو، تحت رعاية وزارة الثقافة ٢٠٠٢، وإلقاء بحث بعنوان»: القانون والثورة: عبد الناصر والســـنهورى». شارك فى مؤتمر «طه حسين» الذى نظمته جامعة المنيا لسنوات.

شـــارك فى مؤتمر لجنة الفلســـفة بالمجلس الأعلى للثقافة، عن: جمال الدين الأفغانى ببحث بعنوان: «الأفغانى: إعادة النظر فى دوره».

شـــارك فى المؤتمر الذى أقامه المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى أسبانيا حول ذكرى طه حسين، حول: «المؤثرات الغربية فى فكر طه خسين، ابن خلدون نموذجا».

شارك فى مؤتمر الاستشراق الذى نظمته جامعة وهران – الجزائر عام ١٩٩٨ ببحث بعنوان: « جاك برك وترجمة القرآن الكريم».

شـــارك فى مؤتمر «العلاقات الثقافية العربية الأمريكية» بالأردن عام ١٩٩٩ ببحث بعنوان»: «صورة الأمريكى فى الرواية العربية».

شـــارك فى مؤتمر المناضل التونسى: فرحات حشـــاد، فى الجمهورية التونسية بمناسبة مرور نصف قرن على استشهاده، عنوان البحث:

«جدل الحركة النقابية بين الوطنية والعالمية»

(فرحات حشاد نموذجا)

شـــارك فى المؤتمر الذى نظمه معهد العالم العربى بباريس بمناســـبة مرور ٣٠ عاما على رحيل جمال عبد الناصر، والذى عقد عام ٢٠٠٠ وكان بحثه بعنوان:

«إشكالية الديمقراطية» (عبد الناصر وقضية الولاء).

شارك فى فعاليات مهرجان الجنادرية ببحث بعنوان:

«العولمة وتأثيرها فى الرواية العربية».

شارك في مؤتمر آليات السلطة في الوطن العربي الذى نظمته مؤسسة التميمي للبحث العلمي لأكثر من مرة منها: مؤتمر عام ٢٠٠١، وألقى فيه بحث بعنوان:

«جمال عبد الناصر وآليات السلطة».

شارك في مؤتمر العولمة وثقافات الشعوب - فنلندا ٢٠٠٢، ببحث بعنوان:

«العولمة في الثقافة المصرية».

شارك في مؤتمر حول الطفل الفلسطيني - الأردن ٢٠٠٢، وذلك ببحث بعنوان:

«إهدار حقوق الطفل الفلسطيني».

حصل على جوائز عديدة من جهات ثقافية مصرية وعربية، أهم هذه الجوائز:

جائزة وزارة الثقافة المصرية عام ١٩٨٢.

جائزة نقابة الصحفيين المصريين عام ١٩٨٧.

جائزة المجلس الأعلى للثقافة في (النقد الأدبي) عام ١٩٦٦.

جائزة أحسن كتاب عن عام ١٩٩٦ من معرض القاهرة الدولي للكتاب عن كتاب: «أحمد بهاء الدين: سيرة قومية»، دار الهلال، القاهرة، ١٩٩٦.

جائزة الدولة التشجيعية في النقد الأدبي (عام ١٩٩٧ عن كتابه: «الاتجاه القومي في الرواية»، سلسلة عالم المعرفة - الكويت، ١٩٩٤، وطبع الكتاب لأكثر من مرة.

الجائزة الأولى من جامعة المنيا في الثمانينات عن كتابه: «شهرزاد في الفكر العربي».

وصلت أعماله إلى قرابة سبعين مؤلفا.

تم تدريس بعض مؤلفاته في الجامعات الغربية إذ سعت جامعة السوربون بفرنسا إلى تدريس كتاباته عن الفكر السياسي على يد العالم الفرنسي المعروف جاك بيرك وذلك في قسم الدراسات العليا.

له العديد من المقالات والدراسات المهمة في العديد من الدوريات العربية منها: «عالم الفكر - المستقبل العربي - الناقد - فصول - القاهرة - البيان - الاجتهاد.. وغيرها.

تناول الاتجاه القومي في الرواية العربية من خلال بحث دؤوب استمر لسنوات زار خلالها معظم الأقطار العربية، وعقد لقاءات مفتوحة مع أغلب كتاب الرواية العرب، للتعرف على مداخلهم الإبداعية، كما انكب على نصوصهم الإبداعية درسا وتحليلا ونقدا.

وعلى هذا النحو، فإن «مشروعه» يتحدد في عدة محاور لعل من أهمها:

رصد (اتجاهات النقد العربي الحديث والمعاصر) وقد صدر له منه بالفعل - الجزء الأول، وبقية الأجزاء قيد الطبع.

إعادة صياغة سلسلة من السيرة الذاتية وأدب الرحلة، تغلب عليها الطابع الأدبي، منها (قبل

الخروج: سـيرة ذاتية وفكرية)، و (جسـر الجمرات: من أدب الرحلات) و (مشرق ومغرب: من ادب الرحلات)... إلى غير ذلك.

فضلا عن إعداده للسيرة القومية التى تمزج بين الذات والخاص عبر كتابات متوالية ...

الجدير بالذكر أن (معجم مصطلحات التاريخ العربى الحديث والمعاصر) وهو المحور الثالث فى مشروعه – يعد أول معجم عربى فى هذا الاتجاه كتبه صاحبه بوعى علمى وعربى معاصر.

ومازال يواصل إكمال نتاجه عبر هذا المشروع حتى اليوم.

ثانيا: المؤلفات

النقد الأدبى:

- الاتجاه القومى فى الرواية: (سلسلة عالم المعرفة)، الكويت، ١٩٩٤.
- (حصل على جائزة الدولة التشجيعية فى النقد الأدبى ١٩٩٧).
- الطبعة الثانية، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩).
- نجيـب محفـوظ: الثورة والتصوف: هيئـة الكتاب، ١٩٩٤، الطبعة الثانيـة، الهيئة العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٢.
- الشرقاوى متمردا: دار التعاون، القاهرة ١٩٨٧.
- قضايا الرواية العربية فى نهاية القرن العشرين: المكتبة اللبنانية المصرية. القاهرة، ١٩٩٩.
- نقد الذات فى الرواية الفلسطينية: دار سيناء. القاهرة ١٩٩٨.
- الغيم والمطر، الرواية الفلسطينية من النكبة إلى الانتفاضة: دار جهاد، ٢٠٠٢.
- البنية الشعرية عند فاروق شوشة: الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢.
- عنصر المكان فى شعر محمد أبو سنة: هيئة قصور الثقافة، القاهرة، ١٩٩٦.
- زكى نجيب محمود «سلسلة نقد الأدب»: الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢.
- الخروج من التاريخ «دراسة فى مدن الملح»: الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣.
- المسرح المصرى فى السبعينات، جـ ١: الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٨.
- المسـرح المصرى فى الثمانينات، جـ ٢: الطبعـة الأولى، دار الوفاء، القاهرة، ١٩٨٤: الطبعة الثانية، الهيئة العامة للكتاب. القاهرة ١٩٩٥.
- فى دائرة النقد: المجلس الأعلى للآداب، ١٩٨٤.
- اتجاهات النقد الروائى المعاصر: جـ ١ الهيئة العامة للكتاب القاهرة ٢٠٠١.
- الاتجاه الانسانى فى الرواية العربية، دار اليمامة، الرياض ٢٠٠٧.
- تحولات الرواية العربية، كتاب الجمهورية، القاهرة ٢٠٠٧.

- الاتجاه القومى فى الأغنية الوطنية، دار العالم العربى ٢٠٠٨.

الأعمال الفكرية:

- طه حسين والسياسة، دار المستقبل، القاهرة، ١٩٧٦.
- تحولات طه حسين، هيئة الكتاب، جـ ٢، القاهرة، ١٩٩٠.
- طه حسين وثورة يوليو، جـ ٣، القاهرة، ١٩٨٩.
- المفكر والأمير، العلاقة بين طه حسين والسلطة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧.
- طه حسين.. الذى لا نعرفه، تحت الطبع.
- المثقفون وعبد الناصر، دار سعاد الصباح، ط ١، القاهرة، ١٩٩٢. الطبعة الثانية، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٠.
- مثقفون وجواسيس – دراسة فى أزمة الخليج، دار الأمين، القاهرة، ١٩٩٧.
- المثقف العربى والعولمة: مهرجان القراءة للجميع، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١.
- شهر زاد فى الفكر العربى الحديث: الطبعة الأولى، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٥، دار شرقيات، ط ٢، القاهرة، ١٩٩٥.
- الجات والتبعية الثقافية: مركز الحضارة العربية، القاهرة، ط ١، ١٩٨٨. مكتبة الأسرة، هيئة الكتاب، ط ٢، ٢٠٠١. مكتبة الأسرة، هيئة الكتاب، ط ٣، ٢٠٠٢.
- الذاكرة المثقوبة – نهب وثائق العرب – الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩.
- القراءة للجميع – دراسة وتحليل: مهرجان القراءة للجميع، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠١.
- تيارات الفكر العربى الحديث، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠١.
- اقنعة الغرب، دار العالم العربى، القاهرة ٢٠٠٨.
- مستقبل الجامعة فى مصر: مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠٢.
- وثائق ومذكرات ثورة يوليو، دار اطلس القاهرة ٢٠٠٥.
- الرقابة المركزية الامريكية على الانترنت فى الوطن العربى، دار عين ،القاهرة ٢٠٠٥.
- المراكز البحثية العربية، روز اليوسف، القاهرة جـ ١.
- المستشرقون الجدد، المراكز البحثية الغربية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة ٢٠٠٧.

تاريخ حديث ومعاصر:

- الجبرتى والغرب – دراسة حضارية مقارنة الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥.
- الفريسة والصياد – الدور الأمريكى فى اغتيال حسن البنا، مدبولى الصغير، القاهرة، ٢٠٠١.

- مؤرخو الجزيرة العربية: دار الموقف العربى، القاهرة، ١٩٨٠.
- المؤثرات الفكرية فى الثورة العربية: الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢.
- حقيقة الغرب، بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية - مركز الحضارة العربية، القاهرة، ٢٠٠١: الطبعة الثانية، الهيئة العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠١.
- الاوقاف على القدس- دراسة، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٧

إبداع مسرحى:

- الحصار: مسرح شعرى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤.
- الخروج من المدينة: مسرح شعرى، الثقافة الجماهيرية، القاهرة، ١٩٩٥.
- اللاعب: مسرح شعرى، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦.
- عودة الفرعون، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٩.
- اصطياد النمر، الثقافة الجماهيرية، القاهرة ٢٠٠٩.

أدب الرحلة:

- جسر الجمرات: ١٤٢١ هـ- ١٤٢٣ هـ
- مشرق ومغرب، دار المصرية اللبنانية، القاهرة ٢٠٠٧.

تراجم:

- أحمد بهاء الدين، سيرة قومية: داز هلال، القاهرة، ١٩٩٦.

(حصل على جائزة أحسن كتاب عن عام ١٩٩٦ بمعرض القاهرة الدولى للكتاب).

- اعترافات عبد الرحمن الشرقاوى: المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ١٩٩٦.
- عمالقة وعواصف، دار الجهاد، القاهرة، ١٩٩٨.

الترجمة:

- الوداع: ترجمة آخر أشعار آرجوان: هيئة الكتاب، القاهرة، ١٩٨٦.

سيرة ذاتية:

- قبل الخروج: سيرة شبه ذاتية، دار الهلال القاهرة: فبراير ٢٠٠٧.
- قبل الخروج: سيرة فكرية، دار الهلال القاهرة مارس ٢٠٠٧.

معاجم:

معجم مصطلحات التاريخ العربى الحديث والمعاصر، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٣.

الفهرس

طبع بمطابع دار المعارف

هذه هى المرأة.. حين تحكم وتتحكم .

حين تتعدد نماذجها وتتحدد عبر نماذج أصلية تمثل أغلب النماذج المعروفة الآن فى هذا العالم.. إننا هنا أمام المناضلة والعالمة والمسيطرة والزوجة والحديدية والنارية والشهيدة والغريبة والغربية والحاكمة والمتحكمة.. والمفترى عليها، إلى غير ذلك من النماذج الواعية..

تستطيع الحركات «النسائية» فى الغرب الآن أن تطالب بتوفير موانع الحمل وتسهيل الإجهاض مجانًا، كما تستطيع أن تتحدث عن إنهاء أشكال «التمييز ضد المرأة وحقها فى أن تحدد ميلها الجنسى» لكنها لا تستطيع أن تشير بجلاء إلى نماذج أخرى كثيرة واعية نلتقى ببعضها هنا، ونتعرف على شبيهاتها داخل الكتاب وخارجه مما يقطع بدور المرأة الإيجابى فى عالمنا المعاصر .





٠٣٤٤٣٥/٠١